الفصل الثالث

المؤثرات في شخصية محمد - ﷺ -

" كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحـالة أو من غيرها أن محـمدا قد تكون ليتلقى الوحي الإلهي ، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تنمو له في أيـام ولا في أشهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه إلا إذا تمـت أهبتها له والمولود في صلب أبيه ، ولا نقول في المهد أو في الرضاع ."

- عباس محمود العقاد

obeikandl.com

obeikandl.com

لاشيء يحدث فجأة مهما كان هينا في هذا الكون الواسع ، قضى بذلك النظام الذي يهيمن على مقدرات هذا الكون الذى أراده الله – عزوجل – فالثمرة التى يقطفها الإنسان من الشجرة ، هناك العديد والعديد من العوامل والعناصر والأحوال والظروف التى تعاونت وتضافرت وتكاملت وتتامت لتكون فى النهاية تلك الثمرة .. كل هذا استغرق زمنا لا يزيد ولا ينقص ، فكل شئ محدد بوقت وميعاد .

حتى قطرة المطر التى تساقطت ... كل شئ بمقدار وكل شئ بوزن ونسب محددة ومقدرة ، وهناك فترة من الإعداد والتمهيد ، والتهيئة ، وهناك كذلك المقدمات والإرهاصات ، لا شئ يحدث فجأة ، وإن حدث فهذا ما نظنه ، وهذا ما نراه بأعيننا فقط ؛ لأنه غابت عنا – ونحن فى قبضة الغفلة – المسببات والمهيئات التي كانت سببا فى ذلك ، فتلك قوانين بنى وصمم عليها الكون ... السبب والمسبب.. العلة والمعلول .

الشخصية الإنسانية لا تستثنى من هذا الأمر ، فهى تخضع وتتأثر لما يخضع له ويتأثر به كل شئ فى هذا الكون ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر شئ يظهر هذا الأمر بجلاء ووضوح هى الشخصية الإنسانية ، لأن هنا يتوافر ما لا يتوافر مع أى شئ آخر فى الكون ، وهما عنصر الوعى والإرادة .

فلا نستطيع أن نحصر جملة المؤثرات التى تعرضت لها الشخصية أو صاغت وكونت الشخصية بمعزل عن هذين العنصرين ، وأى تنظير للشخصية الإنسانية يستبعد هذين العنصرين هو تسطيح يهبط بالشخصية الإنسانية إلى درك من الضعة والدناءة ويسلبها أهم وأجل ما وهب الله – عزوجل – الإنسان فالشخصية الإنسانية لا تستجيب استجابة عمياء ، ولا تتأثر تأثرا سلبيا بالمؤثرات التى تحيط بها ، وإنما الوعى والإرادة يتدخلان فى هذا ، لذلك قد تجد شخصيتين

تعرضنا لمؤثر واحد ، ولكن التأثر والإنطباع وردود الفعل تأتى مختلفة باختلاف الشخصيات ، وهذا راجع - ولا شك - إلى عنصرى الإرادة والوعى .

إذن لكى ندرس الشخصية لابد وأن نعرف جملة المؤثرات المتعددة والمختلفة التى أثرت وتأثرت بها الشخصية ، وفى نفس الوقت ندرس مدى وعى الشخصية فى الاستجابة لتلك المؤثرات ، ومدى قوة إرادتها ، هل خضعت لتلك المؤثرات خضوعا تاما ، أم تحدت وقاومت تلك المؤثرات ؟

○ اليتم :

ربما يكون أول مؤثر وأقواها تأثر به محمد هو مؤثر اليتم ، فقد عانى من أثاره وهو ما يزال جنينا فى بطن أمه ، فقد شاءت الأقدار أن تمضى الزوجة أشهر الحمل الطويلة وهى تعانى من أحزان الترمل والفقد ، فها هى - بعد أن مات عنها زوجها ، ولم تهنأ بنعيم الأنس والائتناس به سوى مدة وجيزة ، بعدها حمل الناعى حد موته فى أثناء رحلة خرج فيها فيمن خرج - قد ترملت ولم يمض على زواجها ست... ...بع فى أشهر الأقوال .

و...نستطيع أن تتصور مدى لوعة وحزن الزوجة الشابة حينما كانت تمضى سحابة نهارها وهى تتذكر كلماته وإيماءاته وابتسماته وضحكاته ، وهى تقضى ليلها مستحضرة ملامحه وقسماته الوضيئة كى لا تبهت من ذاكرتها على مر الأيام وكر الليالى .

ولكن حزن الأم لم يكن حزنا متلفا للنفس ، ولا هو من النوع الذى يسلم النفس إلى اليأس والقنوط ؛ لأنه نتيجة لعدم اكتمال رجاء وعدم تمام أمنية ، وعدم تحقق أمل ، فالرجاء موجود ، ولكنه لم يكتمل ، والأمنية موجودة ولكنها لم تتم والأمل موجود ولكنه لم يتحقق ... فقد كانت الزوجة تتمنى أن يكون زوجها بجانبها والجنين المبارك فى بطنها ، وهما الاثنان يرقبان فى فرح ولهفة نموه

ينتظران أن يخرج إلى الوجود ، ولكن ها هو الزوج يرحل بدون أوبة ، وها هى تحاول أن تجعل من الجنين عوضا عن فقد الزوج ، فهى تستمد منه ما يؤنس وحشتها ويداوى حرمانها ، ويضمد جراحها ، فكل حبها وتعلقها بالزوج تحول إلى هذا الجنين ، لذلك لم تورث جنينها أثناء فترة حملها أى من مشاعر الحزن واليأس والاضطراب العصبى والقلق ، وربما هذا ما دفع فئة من الباحثين أن ترجح أن (عبد الله) والد الرسول لم يمت إلا بعد مولد ابنه ، وأن أشهر الحمل مضت فى أمن وسلام ، لم تعان منها أو خلالها أى حزن أو ألم نفسى ؛ فقد جاء الوليد معافى من كل وأى اضطرابات نفسية أو انحرافات عصبية ، أو هزات وجدانية . وفاتهم أن هناك من النساء من تخلق من اليأس أملا ومن الضيق فرجا ، ومن الظلمة فجرا وضياءا ، هؤلاء النسوة وهبهن الله قوة وإصرارا وإرادة وعزيمة للتغلب على العقبات ومواجهة الصعاب ، والاستبشار والتفاؤل فى أحلك اللحظات واسوأ المواقف " غير أنا نجد عند بعض المفكرين المحدثين – أذكر منهم أستاذنا أمين الخولى – ميلا إلى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، وهم لا يستندون فى ذلك إلى دليل نقلى بقدر ما يستأنسون مما اطمأن إليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا ، وحياة ((محمد)) – ﷺ – تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا – عندهم – يرجح ، إن لم يثبت أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن .

ولا نارى فيما لهذا الرأي من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلى الذى نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الأول ، لا يشيرون إلى خلاف أنه ﷺ ولد يتيما ، وهذا الرأى حملنا على أن نلوذ بالفن لكى نحمل الرواية

المشهورة أقصى ما تطيق احتماله من توفير الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع فاطمأننا إلى أن الجنين نفسه كان عاملا هاما فى عزائها ، وان شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفى لأن يتلفها لو لم ينزل الله سكينته عليها ويملأ دنياها فهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبدالله إياها قبل أن يموت فعاشت به وله "[٧] .

نعم... أورثته شيئا من الحزن وحب العزلة والميل إلى الوحدة والصمت وصفاء النفس وسلامة الفطرة ، وأيضا قوة الإرادة والإصرار .

ولم لا نقول إن وجود مثل هذا الجنين فى أحشاء أى امرأة كفيل أن يمنحها كل تلك الصفات ، فهى لم تكن على تلك الدرجة من التفاؤل وقوة الإراده والتحلد فى مواجهة المحنة والشدة إلا بسبب وجود هذا الجنين واحتواء كيانها عليه ؟ فكل الأخبار والأحداث التى رويت – وهى لا يتطرق إليها الشك – تقول إن هذا الحلعل أى مكان يوجد فيه تحل فيه البركة والأمن والسلام ، فلا شك أن كيان الأم تلبست بها كل تلك الصفات حينما اشتمل كيانها على هذا الجنين .

ويخرج الوليد إلى العالم جميلا وضيئا وسيما ، فقد ورث عن أبيه جمال الخلقة " ولا نكران لما كان عليه ((عبدالله))من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب ، سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها فقد حفظت لنا رؤية العيان أنه كان وأخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون بالأبصار ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب "[٨]

٧- أم الرسول محمد آمنة بنت وهب – د. بنت الشاطئ – صفحة ١٢٥وما بعدها
٨- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٢٣)

وغزت الفرحة والسعادة قلب كل من رأى أو سمع بمولد الطفل فى بيئة يولد فيها الأطفال كل آن وحين ، حتى أن عم الطفل ((أبو لهب)) كافأ الجارية التي حملت إليه خبر مولد الطفل بأن أعتقها ، ولكن كما أن الأحزان قد يرغم الإنسان على مكابدتها ، قد يرغم أيضا على الأفراح والتنعم بها .

وما هى إلا أسابيع أو بضعة أشهر حتى تسلمه أمه إلى مرضعته ، ويمضى الطفل سنواته الأولى فى مضارب (بنى سعد) وتلك البادية كان لها أثر محمود على شخصيته ومنطقه وصفاء ذهنه وطبعه بالطابع البدوى من صدق وصراحة ووضوح وجرأة وقوة واعتماد على النفس " وأقام محمد فى الصحراء ترضعه (حليمة) وتحضنه الشيماء ويجد هو فى الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد فى وسامة خلقه وحسن تكوينه ، فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به حليمة إلى أمه ثم عادت به إلى البادية رغبة من أمه فى رواية ، ومن حليمة فى رواية أخرى ، عادت به حتى يغلظ وخوفا عليه من وباء مكة . وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين يمرح فى جو باديتها الصحو الطلق لا يعرف قيدا من قيود الروح ولا قيود المادة "[٩]

شخصية إنسانية فى بداية تكوينها تستمد مقوماتها من الزمان والمكان وكان للمكان تأثير قوى ، حتى أن الرسول لم ينس تلك السنوات وأقر بأنها كان لها تأثير طيب وحميد " وأقام محمد - ﷺ - فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره ينهل من جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسى ، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه ((أنا أعربكم أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد من بكر) وتركت هذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه "[١٠]

---

٩ - حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (١٠٣)
١٠- المصدر السابق – صفحة (١٠٥)

ويعود الصبى إلى أمه ؛ لينعم بقربها وتسعد بأنسه وحبه . ترى فيه صورة الزوج الحبيب . فبعد مرور تلك السنوات لم تنسه . كيف تنساه وها هو الآن يذكرها به . فالصبى شديد الشبه بأبيه .

وتصحب الأم ابنها أو رجلها لتزور قبر زوجها . وتلك الزيارة – بعد مرور تلك السنوات – لتدل دلالة قوية على عظيم نبل تلك الشخصية وعظيم وفائها وشدة حبها لزوجها . وهو وإن مات فإن حبه لم يمت فى قلبها . ولم تستطع السنوات أن تنال من سمو وفائها له " رأت ((آمنة)) – وفاء لذكرى زوجها الراحل – أن تزور قبره ب ((يثرب))فخرجت من ((مكة)) قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر فى الذهاب غير مثليتها فى الإياب . ومعها فى هذه السفرة الشاقة ابنها ((محمد)) ﷺ . وخادمتها ((أم أيمن)) . وعند الله لم يمت فى أرض غريبة فقد مات بين أخواله بنى النجار "[11]

رحلة تضم الصبى وأمه وخادمتها . وكأن الأم اختارت هذا لتكون هى وابنها فقط . إنها رحلة فى المشاعر والأحاسيس . تعطى الأم الحنون الكثير من الحب والعطف . ويأخذ الابن من أمه الكثير من الرعاية والاهتمام والحدب .... لا بل كان هناك ثالث يشاركهما فى تلك الرحلة . وهو الزوج الغائب . فلا شك أن حديث الأم طوال تلك الرحلة عن زوجها . قصت كل ما تعرفه . وكل ما تشعر به نحوه من حب على مسامع ابنها . ولا شك أن الصبى تشرب وتأثر بالكثير من أمه ومما سمعه عن أبيه . فهو المقصود من تلك الرحلة . وإلا لو كان الأمر متعلقا بالزوجة لذهبت وحدها وجنبت ابنها وعثاء السفر ومشقة الطريق . إنها ليست رحلة إطارها الزمان والمكان . ولكنها خرجت من هذين الإطارين الضيقين لتنقل الصبى إلى عالم رحب من المشاعر والإحاسيس مستمد من ذكرى أب وزوج . ولكن الذكرى هنا يحفها الشجن والأسى . ولا شك أن تلك الرحلة – أثناء الذهاب – قد

١١- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالى – صفحة (٥٦)

أصلت فيه وأكدت مشاعر فقده للأب ، وزادته قربا والتصاقا – عن ذى قبل – بأمه " وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام لدى أخواله قريبا من قبر أبيه نحو شهر ، ثم قفل عائدا إلى مكة ، وإذا المرض يلاحق أمه ويلح عليها فى أوائل الطريق فماتت بـ ((الأبواء)) وتركته وحيدا مع الخادم المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين !إن المصاب الجديد نكأ الجروح القديمة "[١٢]

خرج الصبى ومعه أمه ليزور قبر أبيه ، ويشاء القدر أن يعود إلى مكة بلا أم أيضا ، أى قلب يتحمل كل تلك الآلام والمشاعر وهو ما يزال غضا طريا ؟ وتشاء إرادة الله أن يتحمل وحده الصدمة وهو يرى أمه تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتدفن على مرأى ومسمع منه ... إنه عائد إلى مكة من رحلة الألم والشجن واليتم " وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحبا وحيدا يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحشة وألما ، لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو ما يزال جنينا، وها هو ذا قد رأى بعينه أمه تذهب كما ذهب أبوه ، وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملا ، وزاد ذلك فى إعزاز عبد المطلب إياه ، مع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه حتى وردت فى القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ الضحى: ٦ – ٧ "[١٣]

إنه صهر وصقل للشخصية ، ولا يصهر ولا يصقل الشخصية مثل آلام وأحزان وأشجان اليتم ، وما حدث لمحمد نوع من التمحيص ، رفع لقدرة التحمل توطين النفس وتمرينها وتدريبها وهى ما تزال فى ضحاها ؛ لتكون قادرة – بعد ذلك – على تحمل جميع أنواع الأزمات والمحن ، ليس هذا فحسب ، بل تكون قادرة على الارتقاء والارتفاع فوق تلك الأزمات والمحن ، فهناك خيط موصول بين الألم والحزن وتلك النفس، فما تكاد تنتهى الأم من حديثها عن الأب الفقيد ، ويمتلئ

١٢- المصدر السابق – صفحة (٥٦)

١٣- حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (١٠٦)

قلب الصبى بمشاعر اللوعة نحو أب لم يره حتى يتجرع الآم اليتم بفقد أمه " ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، فيجدد له مصابه فى أبيه ، فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجورا فى عرض الطريق .

إلا إن هذه الفاجعة بما تدل عليه أهم فى دراستنا هذه مما خلفته فى نفس الصبى الصغير. مصابه فى أبيه و مصابه فى أمه ، ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه إليه بعد فقده أبويه . لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل فلا تعيش – إن عاشت بضرباتها – إلا كما تعيش الأشباح فى ظلمات الحياة .

فإذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل أنها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلى بعد ذلك فى تاريخ بنى الإنسان كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب . وتلى ذلك وقفتنا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل . وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين ، عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس إليه فى عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم ، ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التى دان لها هذا العالم المشهود دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس ، وأعم من دنيا الأحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والاخرة ، ويعيش فيه الحى والميت ولا ينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين "[١٤]

ضربات قاصمة ومزلزلة لتنزع منه أى ، يل إلى الدعة أو الرخاوة وتزرع مكانهما أن الحياة جهاد وكفاح ونضال ، لقد نزع القدر منه أى سند يستند

١٤- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية - عباس محمود العقاد - صفحة (٢٣٢ – ٢٣٣)

إليه ، أو حصن يتحصن به أو ملجأ يلجأ إليه ، ليتعود ويتعلم أن كل هؤلاء ليسوا موجودين خارج ذاته ، وإنما داخل ذاته ، لأنه سيأتى حين عليه يكون وحيدا فى مواجهة العالم بدون سند أو حصن أو ملجأ ، نعم إن كل هذا ترك ندوبا غائرة فى تلك النفس لا تمحو ، فقد كان محمد متواصل الأحزان مهمومًا ، ميالاً إلى العزلة صموتًا ، سريع التأثر ، متأجج الشعور والإحساس ، يقط الوجدان ، حيى الضمير . إن تلك الذكرى لم تمح من ذاكرته " ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته تلك الأولى ، حديث محزون لما تحوى القبور من أهله بها . وفى الخبر أن رسول الله ﷺ زار قبر أمه بالأبواء فبكى وأبكى وروى عن ((عائشة)) رضي الله عنها قالت : ((حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه ﷺ)) "[١٥] .

بعد مضى كل تلك السنوات يبكى حينما يمر على قبر أمه ، إن هذا لا يكون إلا إذا كانت حادثة الموت قد أثرت فيه أبلغ تأثير .

لا أب .

لا أم .

كنبت وحيد فى صحراء قاحلة محرقة ، يكاد الظمأ أن يقتله ، ويمضى الصبى سنوات عمره متنقلا بين كفالة جده ومن بعده عمه ، ومهما كان حدب وعطف وحب الجد والعم ، فإنهما لا يعوضان ما يمنحه الأب وما تسخو به الأم ، ولا شك أن عدم وجود الأب والأم قد أورث الصبى إحساسا بالحرمان والفقد ، وظمأ دائم إلى الحب والحنان ، ففى تلك السنوات الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى الأب أو الأم ، فهو فى مرحلة نمو وتكوين وجدانى ونفسى وعقلى ، هناك شئ يكون فى حاجة إلى الإمداد والعطاء ، فى حاجة إلى عناصر أساسية لا غنى عنها ولا

١٥- أم الرسول امنة بنت وهب – د. بنت الشاطئ – صفحة (١٦٨)

بديل لها ولا عوض عنها . لكى يكون الكيان سليما معافيا . وليس معنى ذلك أن الكيان النفسى والوجدانى قد أصيب بنقص أو انحراف أو اضطراب . ولكنه يكون لديه ميل أكثر من غيره . وحاجة أشد من غيره إلى هذا الشئ الذى عانى من نقصه أو كابد من حرمانه . وقد يمضى هذا الإنسان عمره لا يشعر بهذا النقص أو الحرمان ذلك حينما تهيأ له الأقدار من يروى هذا الظمأ ويسد هذا النقص ويرضى هذا الشعور . وقد يتسامى هذا الإنسان ويرتفع وبدلا من أن يشعر بالنقص والحرمان والظمأ ويطلب ويستمد من الآخرين . نجد فيضا من العطاء والرى والمعونة للآخرين لا سيما للذين عانوا ومروا بما مر به ... يرى فى كل يتيم نفسه . ويشعر بالحب والعطف . فهذا اليتيم فى مسيس الحاجة إلى اليد الحانية التى تمتد إليه تمسح جراحه . وتكفكف دمعه . كما كان وهو صغير .يرى فى كل أم أمه العطوفة الحانية التى حرم منها . يرى فى كل رجل أباه الذى لم يره ولم ينعم بعطفه . لا يرى فى اليتيم إنسانا فى حاجة إليه بل اليتيم هو نفسه . يجسد معاناته .

هنا الشخصية انتصرت على نفسها ... تسامت ... ارتفعت فوق الآمها وجراحها . تحررت من قيودها . فالنفس الإنسانية لها مواقف إزاء ما تتعرض له من محن وشدائد ومصاعب على مدار حياتها :

- أما أن تأخذ موقف المنتقم ممن كان سببا فى تلك المحن والشدائد . ترى فيمن حولها السبب – بطريق مباشر أو غير مباشر – فيما حدث لها . هنا أصبحت النفس قوة انتقام فى حد ذاتها . طاقة ثأرية مدمرة تريد أن تطفأ نارها بأن تحرق كل من تصادفه فى طريقها . وفى النهاية تحرق ذاتها .
- أن تأخذ موقف المسامح لما حدث لها وتصفح عمن كان سببا فى هذا وتنسى أو تتناسى كل تلك المحن والشدائد . وإن كان يظل قابعا فى أعماق تلك النفس إحساس بالألم والمرارة . ولكن كل هذا لا يتطور إلى

سلوك أو أفعال معبرة ، مجرد إحساس ومشاعر تؤلم صاحبها إن استعاد ذكراها وملابساتها

- حينما تتجرد النفس من ذاتيتها الضيقة التى كابدت وعانت وتألمت وتفصل بينها وبين تلك الآلام والمعاناة والمكابدة ، وتخرج من هذا النطاق بعملية أو بتجربة إدراكية ومعرفية ، تؤكد أن هناك أفرادا يعانون ويكابدون ، والنفس هنا لا يشغلها شاغل ولا يقلقها أمر سوى معالجة ومداواة هؤلاء الأفراد ، ورفع الحرج والعنت والشدة عنهم ، هو لا يداوى ولا يعالج ذاته ، ولكنه يعالج الجنس البشرى كله ، أو قل أن ذاته ذابت وانصهرت ، أو أن نفسه اتسعت ورحبت وسمت وارتقت لتجسد الجنس البشرى أو يتجسد فيها الجنس البشرى ، نرى هذا فى الشهداء والثوار والمصلحين والأنبياء ، وعلى رأسهم محمد سيد الأنبياء .

فى ضوء هذا المؤثر (اليتم) تتضح الكثير من جوانب شخصية محمد فهناك جانب هام من جوانب شخصيته وهى (الرحمة) ولا نقصد أن نقول أن الرحمة جانب أو مظهر أو خصيصة من خصائص شخصيته فقط ، بل أن شخصيته طبعت وصيغت وتكونت على الرحمة وبالرحمة ، وأن كل تصرفاته وأفعاله والمحرك الأساسى لتلك الشخصية هى الرحمة ، والمفسر والموضح لكل الأقوال والتصرفات .

وتأصلت تلك الصفة وتعمقت وتغلغلت فى شخصيته حتى صارت فطرية وغريزية ، فلا هو الذى أودعها ، ولا يملك أن ينتزعها ،وإنما هو مدفوع إليها دفعا مساق إليها ، ولا يظن ظان إن إرادة محمد هنا غائبة أو مسلوبة ، بل لا تظهر إرادته كأوضح وأكمل ما تكون الإرادة إلا وهو يتصرف بمقتضى تلك الفطرة والغريزة ، لأنه يفعل هذا بكل الحب والرضا ، وأظن أن من يفعل شيئا دافعه الحب والرضا لن يكون مسلوب الإرادة .

صفة ... الرحمة . ثم تتجسد تلك الرحمة فى صور متعددة ، فهو رحمة في ... وهو رحمة في صورة الأب ، وهو رحمة فى صورة الصاحب وهو رحمة في صورة القائد وهو رحمة في صورة الرسول وهو رحمة فى صورة النبى.

ومن اجل هذا ... لا نستطيع أن نقول أن محمدا كان زوجا وكفى بل أكثر من ذلك

وإنه لم يكن أبا وكفى ، بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن صاحبا وكفى بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن قائدا وكفى بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن رسولا وكفى بل أكثر من ذلك .

وإنه لم يكن نبيا وكفى ، بل أكثر من ذلك .

وقد يقال إن كل الأزواج رحماء ، وكل الآباء رحماء ، وكل الرسل والأنبياء رحماء ولكن الرحمة مع محمد تختلف عن الرحمة مع غيره ، فمع غير محمد تجئ الرحمة على ... دواعيها . فإذا كان الأب رحيما ، فقد تمتنع الأبوة وتمتنع تبعا لذلك الرحمة ... قد تقل أو تزيد .

ولكن محمد رحيما بالمرأة حتى ولم لم يكن زوجا ، ومحمد رحيما بالأبناء حتى ولو لم يكن أبا . ومحمد رحيما بالرجال حتى ولم يكن صاحبا أو صديقا ومحمد رحيم بالجنس البشرى حتى لو لم يكن نبيا أو رسولا .

السبب الرئيسى والجوهرى فى تعدد زوجاته هو الرحمة . فهو رحيم بالمرأة التى مات عنها زوجها ولا كفيل لها ، وهو رحيم بالمرأة الشريفة التى وقعت فى الأسر فرحمها من ذل المهانة والضعة ، وهو رحيم بالمرأة التى تخلى عنها قومها لأنها ... الدعوة الجديدة . وهو رحيم بالمرأة التى أسنت ولم يعد يرغب فى ... أحد من الرجال ... وكان محمد يستطيع أن يعوض هؤلاء النسوة بأى صورة من صور التعويض والجبر والمواساة بالمال أو يزوجهن بأحد من أصحابه ، ولكن

تأبى رحمة محمد إلا أن تشمل هؤلاء النسوة . وهو رحيم بذكرى المرأة سواء كانت زوجته – خديجة رضى الله عنها – أو من كانت تعرفهن . وهو رحيم كأب بالأطفال ويتضح ذلك من مسلكه تجاه (زيد بن حارثه) إلى الدرجة التى يدعيه ابنا له . وهو رحيم بأولاده . انظر إلى فرحته وابتهاجه يوم ولد ابنه (إبراهيم) وانظر إلى حزنه ولوعته لموته . " ولد إبراهيم !

ولد الطفل الذى نظر أبوه إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين مل ألوف السنين . وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى . ليكون أبا ويكون له أحفاد ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد .

ثم مات ذلك الطفل الصغير.

ومات ذلك الأمل الكبير.

مات كلاهما والأب فى الستين .... أى صدمة فى ختام العمر ؟ أى أمل فى الحياة ؟ الدين قد تم، وهذه الأصرة قد انقطعت . فليس فى الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والإدبار.

مات الطفل ولما يدرك السنتين .

مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين .

ولكن المصائب فى الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم . والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه .

إنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا . وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم والأمل يطول فى بداءة الطريق وقد يقصر فى منتصف الطريق .

ما تخيلت محمدا فى موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعا إلى الله .

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الألوف بعد الألوف ، وهى فى ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز: رجاء وأسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح فى الدنيا من رجاء .

وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب إلى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ومع أقرب الناس إليه "

" وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال . كان الحزن الوجيع يوم الوداع: خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه حجر التراب . وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ! لو كان بك مثل ما بى لهدك . ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .

أى والله ! إنها لإحدى الفواقر التى يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال . وصرخ أسامه حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان " [١٦] .

- كذلك دفعه إحساسه باليتم إلى العزلة والابتعاد عن قومه وفيما يخوضون فيه فلم تقص السيرة عن أى علاقة نشأت بين محمد وبين المحيطين به فى سن تنشأ العلاقات وتتوثق ، فقد كان قليل الاختلاط حتى بمن يقاربونه فى السن والمنشأ ، وربما هو الذى مال إلى أن يعمل بحرفة الرعى لأن تلك المهنة لا تتطلب أن يتعامل أو يختلط بالآخرين ، بل تتيح له أن يمارس ما تميل إليه نفسه من العزلة والوحدة والتأمل والتفكير . وأن يمضى سحابة نهاره فى حضن الطبيعة بسمائها الصافية ، وهواؤها العليل وسهولها المنبسطة وجبالها الوقورة ، وربما أحياء مكة اللاهية وما يخوض فيه شبابها وفتيانها لم يكن يحرك فى نفسه ما تحركه وتثيره الإنفراد بنفسه . فهو يجد الراحة كل الراحة

١٦- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٤٢) وما بعدها

فى هذا الابتعاد وتلك العزلة وبقدر ضعف علاقاته وهوان ارتباطاته بهذا العالم بقدر قوة ومتانة علاقته بعالم آخر يجد سلواه وعزائه . وليس معنى ذلك أن فى شخصية محمد نوعا من الانحراف أو عدم التكيف مع من حوله . فهو يشعر بكل ما يدور حوله ويعيه ويدركه وتميل نفسه إلى ما تميل إليه نفوس الشباب والفتيان فى تلك المرحلة من العمر . ولكن هو لا يجد متعته وسعادته فيما يجدها الشباب " روى ابن الأثير : قال رسول الله ﷺ : ((ما هممت بشئ مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين . كل ذلك يحول الله بينى وبينه. ثم ما هممت به حتى أكرمنى رسالته . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فلان بفلانه . فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك . فسألنى فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك . ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ... ثم ما هممت بعده بسوء "

وإن كان بعض علماء الحديث يضعف هذا الحديث . إلا أنه يدل على ما نتصف به شخصية محمد . أو لا يخالف ولا يعارض المشهور عن سيرته . فهو يريد أن يسمر ((كما يسمر الشباب)) ولكن هذا الخاطر كان ابن لحظته . فلم يسبقه تمهيد ولا إعداد ولا تهيئة ولا مواعدة . ولم يتخذ له صاحبا فى هذا الأمر . وكأنه نوع من حب الاستطلاع أو الفضول ليس أكثر . ولو اعترضه أى معترض ولو كان هينا ما ذهب . وربما لو سار بعض الوقت فى طرقات مكة لعاد من حيث أتى . ثم أنظر ((فجلست أسمع)) فهذا الأمر لا يعنيه فى قليل أو كثير . ثم نام . نعم فليس هذا ما يمتعه . وليس هذا ما يشوقه وليس هذا ما يدخل السرور إلى قلبه . فكل هذا غريب عنه . وليس هنا مكانه ... ثم يكرر الأمر مرة أخرى . ويحدث ما حدث فى

المرة الأولى . وينام ولا يستيقظ إلا فى الصباح ! ولو كرر محمد ما فعله ألف مرة لنام ألف مرة ، لسبب بسيط ، أنه كون له عالما . هذا العالم يجد فيه ما يشتهيه من متع الروح وما تميل إليه نفسه من هدوء وسلام وسكينة ، وما يهفو إليه عقله من تأمل وتفكر وما يستريح إليه ضميره من أمن وإنشراح ، وما تطلبه نفسه من سعادة وسرور .

أما وأن هذا عالمه ، الذى يرضى فيه روحه وعقله وضميره ونفسه ، فما شأنه بعد ذلك بعالم الناس ، وما ضره إن فاتته متعة أو لذة أو بهجة من هذا العالم؟ بل هو لا ينتظر أو يتوقع أى شئ يسره من هذا العالم ، فلديه رصيد وزخيرة هائلان من المشاعر والأحاسيس والخواطر ما يجعله يزهد ويرغب عن عالم الناس وما يخوضون فيه .

إن يُتمَ محمد قد جنبه الكثير والكثير ، لقد ابتعد به مسافة عن الناس ، وما يشغلهم ، هذا الابتعاد مكنه أن يضع كل شئ فى مكانه الصحيح بدون إفراط أو تفريط ، كما أن هذا الابتعاد أعطاه الفرصة أن يتأمل ويطيل التأمل ويفكر ويمد فى حبال التفكير ، نعم إنه لم يصل إلى نتيجة عملية من هذا التأمل ، ولم يحصل على أمور عقائدية نتيجة هذا التفكير ، ولكنه نوع من الإدراك الذى بدأ ينمو ، ووعى أخذ يتسع ، ومشاعر وإحاسيس طفقت تتسامى وترتقى .... ذات قلقة غير راضية عن هذا الوجود الفقير من متع الروح ، وغير قانعة بما عليه الناس من التهالك على متع الجسد ، وزاهدة فيما هم يدينون به من دين ويعتقدونه من عقائد

" ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد وأنه - قبل رعى الغنم وبعده وقبل احتراف التجارة وبعدها - كان يعيش يقظ القلب فى أعماق الصحراء ، صاحيا بين السكارى والغافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل وحدة البقطان . كالشعاع الذى ينمى الأشواك والورود معا ، وقد كان محمد ﷺ يستعين بصمته الطويل . صمته الموصول بالليل والنهار . صمته المطبق على الرمال الممتدة والعمران القليل كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل ، وإدمان الفكر واستكناه الحق ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من هذا النظر الدائم أرجح يقينا من حفظ لا فهم فيه أو فهم لا أدب منه ، ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها " [١٧]

○ الفقر:

لا أحد ينكر أن للفقر تأثيرا كبيرا على الشخصية الإنسانية . فكثيرا ما كان الفقر هو المحرك الأساسى والرئيسى لبعض الثورات وللحركات الإصلاحية ؛ لأن الفقر بمثابة عوار أو عيب يعيب المجتمع الذى يوجد فيه . أو هو دلالة واضحة وأكيدة أن هناك خللا فى نظام هذا المجتمع . وأن هناك قوة مهيمنة أو قانون مسيطر تمتلكه أو تجسده مجموعة من الأفراد يفرضون نظرتهم أو فكرهم وأن تلك النظرة أو الفكرة تعتمدان على استغلال الأحر استغلالا غير إنسانى . وبمرور الوقت وتنامى واستفحال هذا الاستغلال تتكون مجموعتان أو فئتان : التى تملك كل شئ والتى لا تملك أى شئ . إلا بما تسمح به الطبقة الأخرى هذا إن سمحت . وينقسم المجتمع أو الجماعة أو العالم إلى هاتين المجموعتين . وينشأ الصراع بينهما . قد يكون مستترا أو معلنا . مباشرا أو غير مباشر . متخذا صورته الصريحه والحقيقية أو مرتديا أقنعة أو صورا كاذبة . وإن كانت تلك الأقنعة والصور لا تغير من حقيقة الصراع .

١٧- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالى – صفحة (٦٠)

وكانت نتيجة الصراع فى أغلبها دموية ، دفعت الإنسانية فيها الكثير من دم أبنائها ، وللأسف كانت الدائرة تدور على الفقراء ، الذين لم يكن أمامهم إلا أمران : الخضوع والاستكانة وبذلك يقدمون حياتهم وثمرة جهدهم للأغنياء أو الثورة وبذلك يقدمون حياتهم ودمائهم ؛ لأنهم هم أول وقود لإشعال أى ثورة، فهم فى الحالتين يتكبدون الخسارة والبوار ، حتى وإن قدر للفقراء الفوز والنجاح فإنهم بعد فترة يستغلون تحت أى شعار أو وراء أى أقوال براقة ؛ لأنهم لم يتعودوا أن يقودوا ، وإنما ينقادون " فالمجتمعات القائمة كلها فى العالم اليوم ، امتداد لهذا المجتمع الأول الفاسد الذى قام فى غفلة من الزمان ، فالصراع متصل ما استمرت هاتان الطبقتان : إحداهما تعيش على حساب صاحبتها ، لأنهما طبقتان متخارجتان - بلغة أهل الفلسفة _ كسب إحداهما خسارة الأخرى ولا بد .

وما التاريخ فى حركته ، منذ الأزل إلى اليوم ، إلا تاريخ هذا الصراع تطور بالناس - فى زعمهم - أطوارا ثلاثة ، هى أطوار الحضارات الثلاث التى عرفها التاريخ : حضارة الرق والعبيد ، وحضارة الإقطاع ، ثم ما نحن فيه اليوم من الحضارة (البرجوازية) ، أو حضارة المال ورؤوس الأموال " [١٨]

وعلى ما يبدو أن مشكلة الفقر من المشاكل التى ستظل مستعصية لا تجد لها الإنسانية الحل المثالي ، وإنه إذا وجد شخصان فقط على وجه الأرض سيكون إحداهما فقيرا والآخر غنيا ، وكأن الفقر والغنى أمران قدريان لا تستطيع الإنسانية الانفكاك منهما .

وليس للفقر تأثير متشابه على النفوس الإنسانية ، فقد يدفع نفوسا إلى الجريمة والإفساد ، ويشعل فيها مشاعر الحقد والكراهية والانتقام ، ويؤجج عوامل الغضب والثورة والدمار ، وقد يدفع نفوسا إلى الصلاح والاصلاح ويشيع فيه مشاعر الحب والتعاطف ، ويؤصل أفكار المساواة والعدل والسلام بين الناس .

١٨- الإسلام والفكر المعاصر - د. حلمى مرزوق - صفحة (١٠)

فقد يتعرض شخصان لمؤثر واحد ويكون التأثر والوقع مختلفا ، ويرجع هذا إلى النفس ومعدنها ، فإذا كان معدنها أصيلا فإن كل ما يصدر عنها طيبا وخالصا حتى لو كانت المؤثرات التى تعرضت لها مؤثرات قاسية وسيئة وطاحنة ، فالله – عز وجل – خلق للنفس الإنسانية قدرة هائلة على التكيف ، وقلنا فيما سبق أن هناك عنصرين : الإرادة والوعى ، تستطيع النفس أن تملك أمرها وتخرج من المآزق والأزمات كأحسن ما تكون ، وكذلك لديها الوعى لتفاضل وتختار مع أى المؤثرات تنساق وتندفع ، ومع أى المؤثرات تتوقف وتعترض .

وقد كان للفقر تأثير قوى وشديد على شخصية محمد ، وقد يعيش الفقير فى مجتمع لا يشعر فيه بوطأة الفقر وثقله على نفسه ، وقد يعيش الفقير فى مجتمع يشعر بحرج وعنت ما يسببه له الفقر ، ومع هذا فإن هذا الحرج والعنت لا يترك ندوبا غائرة فى النفس ولا إحساسًا بالمرارة والأسى ، فالمجتمع يراعى تلك الفئة – ما أمكنه – طالما لا يستطيع معالجتها العلاج الجذرى ، وهذا واجب وفرض ، لأن إذا كان الفرد هو المسئول الأول عن فقره ، فإن المجتمع يعتبر المسئول الأكبر عن فقره .

وكان محمد يعيش فى مجتمع يجعل الفقير يشعر بوطأة وثقل الفقر ، ويجعله يشعر بالحرج والعنت ، ويجعله يترك ندوبا غائرة فى النفس ، ويخلف فى نفسه إحساسا بالمرارة والأسى ، وكان مجتمعا لا يرعى فئة الفقراء بل يقسو عليهم قسوة لا تليق بالإنسان ، بل قد يكون الفقر من أيسر السبل التى تدفع الفقير أن يقع فى أسر الرق والاستعباد ، ودفع – كذلك – البعض أن يجنى على نعمة الوجود بأن حرض بعض الآباء أن يقتلوا أولادهم ، وكان الفقر السبب الرئيسى وراء غارات بعض القبائل على القبائل الأخرى كى ينقذوا أنفسهم من مخالب وأنياب الفقر والحرمان ، وكان القتل وسفك الدماء أهون عليهم من معاناة الفقر... إلى تلك

الدرجة نجح المجتمع المكى أن يجعل من الفقر شبحا مرعبا يلاحق الفقراء فى هجعتهم ويقظتهم ، فى منامهم وواقعهم .

وعلى قدر هذا الفقر المدقع الذى قد يدفع صاحبه إلى القتل أو قد يفقد وجوده أو حريته ويعانى ما يعانيه من بؤس ، على قدر الغنى الفاحش الذى يدفع صاحبه إلى الجبروت والطغيان والانغماس فى الشهوات والملذات بكل صورها وأشكالها ويمكنه المال من أن يسحق آدمية وإنسانية الآخرين .

فى هذا المجتمع المال هو القيمة الوحيدة المعترف بها ، أو هو مصدر القوة أو هو القانون الذى يحكم الجميع ويهيمن على مقدرات الناس .

ومحمد قدر له أن يولد فقيرا ، وزاد من إحساسه بالفقر يتمه ، فقد يولد إنسان فقيرا ، ولكن وجود الأب يخفف من الإحساس بهذا الأمر ، فمجرد وجود الأب نوع من الإحساس بالقوة والاستغناء عن الآخرين .

وقد يكون الإنسان يتيما ، ولكن وجود المال يخفف عنه الإحساس بألام اليتم إنه لن يمحيها ، ولكن اليتم لن يكون له هذا الإحساس اللاذع والوخذ المؤلم للوجدان وسيكون فى وجود المال سلوى وعزاء لليتيم ، ويجد من الآخرين الرغبة فى إرضائه أو على الأقل لن يجد منهم الصدود والزهد فيه كما حدث مع محمد والمرضعات فقد صددن عنه وزهدن فيه ، فما ترجو مرضع من يتيم وفى نفس الوقت فقير ؟

والذى زاد من إحساسه بالفقر أكثر ، ما طبع عليه من الإحساس بالعزة والكبرياء والإعتداد بالذات ، ورثهم عن أجداده ، فهم أسياد مكة شرفا ومكانة بلا منازع " ولد محمد - ﷺ - من أسرة زكية المعدن نبيلة النسب جمعت خلاصة ما فى العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضار قال رسول الله - ﷺ - عن نفسه : ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بى هاشم "[19]

١٩- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالى - صفحة (٥٠)

نعم ، كان النبى من أسرة عريقة فى النسب وجمعت بين الثراء فى الفضائل والمكرمات ، والغنى فى المال ، وكان المال لديها وسيلة لتأصيل مكانتها الأدبية فى مكة " لقد كان بنو هاشم – أسرة النبى – أصحاب رئاسة ، كانت لهم أخلاق رئاسة عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة وبرزت كل حليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء ، أو من الكلمات التى ترسل إرسالا على الأسنة ولا يراد بها معناها .

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه ، ومما يروى عنه إنه كان أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الصيف ورحلة الشتاء وحقيقة ذلك مما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها فنسب إليه أنه أول من سنها ، ومكانته فى غير قريش وفى مدن التجارة خاصة تدل عليه مصاهرته لبنى النجار فى المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عم الخزرجية التى كانت – لشرفها وعزتها – تأبى أن تتزوج إلا أن يكون أمرها بيدها ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام "[٢٠] .

هذا فيما يخص جده الأعلى ، أما فيما يخص جده الأقرب " وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره ، واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شخصية قوامها الإيمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور فى غير جدوى ، ولا تنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى وكلها صفات جديرة بآباء الأبناء والمرسلين "[٢١] .

٢٠- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية – عباس محمود العقاد – صفحة (١٩٢)
٢١- المصدر السابق – صفحة (٢٠٠)

حينما يرث محمد تلك الصفات والمكرمات والفضائل عن آبائه وأجداده فإن الفقر - وإن كانت لا ترفضه ولا تتبرم به - يكون له وقع غريب وعجيب على النفس ، لا يجعلها تشعر بالدونية والضعة ، ولكنه يؤجج فيها مشاعر الاعتزاز والإباء إنه بمثابة إنذار وإحساس بالخطر على النفس فتجد النفس مدفوعة إلى أن تعتصم وتلجأ إلى صفاتها الحميدة وخلالها الطيبة ، فكل هؤلاء عوضٌ عن المال ، بل المال يتضاءل ويحقر بجوار تلك المكرمات والفضائل ، فالمال أعجز وأهون من أن يوفر لصاحبه أو يجلب لمالكه مثل تلك الأشياء ، وربما قول عمه (أبو طالب) وهو يعرض ابن أخيه فى حفل زواجه من (خديجة) ﷺ يلخص تلك المعانى ((إن محمدا لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قلا فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ..)) .

لم ينل الفقر من اعتزاز محمد بنفسه أو نسبه ، ولم ينل من شرفه ونبله ، ولم يجعله يشعر بالحرمان أو الانكسار ، وكل ما فعله الفقر فى شخصيته دفعه أن يعاهد نفسه أن يكون مع هؤلاء الفقراء بفكره وعقله ووجدانه ، بل أثر أن يعيش عيشتهم ويسلك مسلكهم ، لا يريد أن يفارق هؤلاء الصنف الضعيف المطحون المسحوق فى الحياة ، ليظل موصولا بهم وموصولين به ، ولا يغفل عنهم طرفة عين ولا يوجد إنسان على وجه الأرض فى تاريخ الإنسانية الطويل استطاع بمقدرة وكفاءة أن يعالج مشكلة الفقر ، مثلما عالجها محمد ، فقد عالجها علاجا جذريا وما تسنى له ذلك إلا بأن يكون واحدا منهم ، فقد آلى على نفسه إلا أن يتخذ هذا المسلك ، لأنه رأى أنه من الخطل أو من الزيف أن يعالج مشكلة الفقر وهو يعيش معيشة الأغنياء والسراة .لقد جرب الفقر وعاناه وعاش معه سنوات طويلة ، ولم يزده هذا إلا قوة وصلابة وتصميما فى رفع الحرج والعنت عن هؤلاء ، وأيقظ فى نفسه مشاعر العطف والحنو والحب لهم ، فما له لا يعيش بقية حياته على هذا النمط والوتيرة التى عاشها فى صباه وطفولته ؟!

كان لليتم تأثير على شخصية محمد .

وكان للفقر تاثير على شخصية محمد .

وكان لليتم والفقر ممتزجان تأثير ثالث على شخصية محمد . وحينما امتزجا في نفس محمد جعلاه يشعر أنه غريب عن المجتمع والمجتمع غريب عنه ، إنه لا يستطيع أن يتكيف أو ينسجم أو ينخرط مع من حوله .

في البداية كان ابتعاد مرده الجفوة أو الكراهية ، أو قل إحساس ينتاب النفس أن لديه الكثير من الألام والأحزان واقترابه من الناس وانخراطه قد يزيد من تلك الألام والأحزان أو قد يثيرها أو يؤججها . مثل هذا الإنسان الجريح جرحا بليغا يتجنب – ما أمكنه ذلك – أن يعيش أو يسير بين الناس خوفا من أن يلمس أحد جراحه أو ينكأها أو يزيدها جرحا جديدا ، فهذا انطوى على نفسه يلعق جراحه علها تشفى مع مرور الأيام أو لعله يجد في نفسه القوة على أن يتحملها ، وكان اشتغاله في فترة الصبا بالرعى من أنسب الحرف التي تناسب حالته النفسية فهي تنأى به عن الناس وتجعله يعيش في عالم آخر .

ومع مرور الوقت ، ومع طول التفكير والتأمل ، أصبح الابتعاد عن الناس يحقق له راحة واطمئنانًا وسلامًا وهدوءًا نفسيًا ، ومع هذه الراحة والهدوء والاطمئنان والسلام اتخذ موقفا عقليا وعمليا من المجتمع حوله ، فليس هذا العالم ولا هذا الوجود قدرا مقدرا على الإنسان ، فقد يرفضه في قرارة نفسه ويتخذ منه موقفا إن لم يكن معارضا فليس هو بالقابل به أو الموافق عليه ، هذا الشخص يصنع لنفسه عالما آخر موازيا للعالم الواقعي الذي لا يرفضه رفضا كليا ، ولا يقبله قبولا تاما يجد كل السعادة حينما يخلو إلى نفسه ، متمركزا حول ذاته ، فذاته هي مركز هذا العالم الخاص به ، بعيدا عن ضجيج ولغط وصخب الناس حوله ، معرض وزاهد فيما ينغمس فيه الناس ، وهذا يفسر أمورا كثيرة في حياته :

- فعلاقته الاجتماعية لم تكن متعددة أو متنوعة ، اللهم إلا ما يمت إليه بصلة القرابة والنسب ، فلم يؤثر عنه أنه كون صداقات ، وإن كانت فالبكاد تعد على أصابع اليد الواحدة
- الحرف التى مارسها كانت الرعى والتجارة ، ولا أظن أن الأمر طال به فى هاتين الحرفتين ، ولم ينبغ فى أى أمر مما قد ينبغ فيه رجل من قومه ، فلا هو بالشاعر ولا الكاتب ولا الخطيب ولا القائد ... كيف ينبغ فى أمر من الأمور المتصلة بهذا العالم وهو لم يكن خالصا له ، وإنما كان عقله وفكره مشغولا ومعلقا بأشياء أخرى .
- اختياره غار حراء ليعتزل فيه ، فالغار بعيد ومنعزل انعزالا تاما عن مكة وإن كان الانعزال والابتعاد مجرد رغبة طارئة تنتابه لاكتفى أن يقوم بهذا الابتعاد والانعزال فى بيته أو فى مكان قريب من مكة ، أما أن يكون المكان بهذا الابتعاد والانعزال ، ويداوم عليه بصفة دائمة ومستمرة لا تنقطع فإن هذا الأمر متعلق بجوهر شخصيته ، ويمكون من مكونات تلك الشخصية ، فهو يريد أن يكون فى مكان ليس من هذا العالم ، حتى يستطيع أن يتصل بعالم آخر ، هو لا يعرفه ولا يتبين ملامحه ، ولا أبعاده ولكن شيئا غامضا يدفعه ويسوقه أن يستحضره ويعيشه بكل حواسه استغل فى طفولته راعيا فلم يمتز عن زملائه فى شئ غير استقامه سيرته وكرم شمائله وبعده عن السفاسف. فلما كبر اشتغل بالتجارة فكان كأوسط أهلها لم يبز أمثاله فى شئ غير أمانته فى الأداء ، وعدالته فى المعارضة .

كل إنسان كتب له النبوغ فى عمل من الأعمال يظهر عليه ميل إليه فى طفولته ، فمن قدر له أن يكون شاعرا أو كاتبا أو خطيبا أو حكيما و قائدا نمت بصيرته عليه فبدرت منه ، وهو طفل ما يدل على ما سينبغ فيه ، ولم يظهر على

محمد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤل إليه غير ميل كان فيه إلى السكينة والتفكير وكلما تقدمت به السن ازدات حاجته إليها حتى تأدى به ذلك إلى تمضية أيام بلياليها فى غار بقرب مكة يقال له حراء ، فكان يمضى فيه ثلاثة أيام وتارة سبعة وتارة تسعة وتارة شهرا ، يمكث فنه وحده متفكرا متدبرا . هذه هى الصفة التى ميزت محمد بن عبد الله عن غيره من أهل جيله ، وهى صفة لا يجوز أن تغفل أو أن يمر بها مرا ، لأنها مظهر ما استتر فى سويداء نفسيته من النزوع إلى أفق الروح والاتصال بعالم الملأ الأعلى ، وما لازمت هذه الصفة نفسا بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحى على قدر ما فيها من قوة ، ولقد كانت هذه الصفة مستوعبة شعور محمد استيعابا لا يدع لغيرها مكانا فيه ، بدليل لجوئه إلى غار موحش أياما وليالى متوالية يمضيها فى التفكير وتلمس المخرج من الحيرة . من أى ضرب كانت هذه الحيرة ؟ من الضرب الذى يشغل الكملة من أصحاب القلوب والبررة من أولى العزم تخليص النفس من ظلمات المادة وتخليص الغير منها " [٢٢]

وإن كان محمد سار على عادة بعض العرب فى الانقطاع والانعزال فترة من الوقت يتعبدون فيها إلا أن الأمر مع محمد كان أعمق وأصل . فلم يكن الانعزال والوحدة تعبد فحسب ، وإنما كان حاجة نفسية ، وراحة روحية . فترة من الوقت تهدأ وتسكن وتصفو نفسه ، ليس هذا فحسب ، بل تسمو وتترقى ...اقتراب حميم من الذات ، ومعرفة يقينية بأحوالها ، وإدراك واع لطبيعتها وتصالح واتفاق مطلق مع نفسه وذاته ، كانت أمامه مدارج لانهائية تترقى فيها نفسه . إنها فترة تجميع خالص لقوى النفس ، تنظيم وإعداد لقدراتها ، معرفة واعية لمخزون طاقاتها ، محو وتبديد وتطهير وتذكية لما قد يعكر صفو تلك النفس إبعاد أى تشويش ، وإزاحة أى عرقلة لدرجة استعدادها لاستقبال ما ترسله السماء ، إنارة لكل مناحى وجوانب النفس ، بحيث لا يبقى منحى أوجانب خفى أو مبهم أو متوارعنه .

٢٢- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة – محمد فريد وجدى – صفحة (٨٦- ٨٧)

ولا نعرف على وجه الدقة والتحديد ماذا كان يفعل أثناء خلوته وانعزاله تلك المدة ، وإن كنا ندعى أنه كانت تتفتح أمامه عوالم من المشاعر والإحاسيس وضروب وسبل من التأمل والتفكير ، وإنه بدأ فى تلمس أطراف أو ملامح عالم لا يسعى إليه سعيا حثيثا فقط ، بل هذا العالم بجماله وبهائه وقدسيته وسموه يجذبه فى رفق ولطف شيئا فشيئا ، ويشعر بعملية انسلاخ من حالته البشرية ، وإن أحواله الأرضية تزايله ليتلبس بأحوال أخرى كلها سعادة وأمن وسلام

" قد كان من عادة العرب إذ ذاك أن تنقطع مفكروهم للعبادة زمنا فى كل عام يقضونه بعيدا عن الناس فى خلوة يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنف والتحنث وقد وجد محمد فيه خير ما يمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يتلمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما فى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمال مكة – غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، مكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعنا فى التأمل والعبادة بعيدا عن صخب الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق والحق وحده ، ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ليس حقا . وهناك كان يقلب فى صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا "[٢٣] .

وما كان يفعله محمد كان يفعله بجهد بشرى خالص ، هو لا يدرى لماذا ... إن ما يفعله يحقق له السعادة والراحة والسلام ، ولا نستبعد رعاية وعناية وتوفيق

٢٣- حياة محمد – محمد حسين هيكل – صفحة (١٤٥ وما بعدها)

السماء له ، لأن ما يحدث داخل الغار يعجز أى بشرى أن يصل إليه بدون عون من السماء ، فالمهمة التى سيؤديها محمد والدور الذى سيقوم به ، ليست مهمة بشرية خالصة ، وليس الدور محدود بزمان ومكان أو على قدر طاقة البشر ، أما والأمر كذلك فلابد أن تكون للسماء فى هذا الإعداد والتهيئة دور ما .

فى ضوء هذا التصور من الممكن أن نفهم حادثة شق الصدر ، فما الذى حدث بالضبط وبالدقة وبكافة التفاصيل ؟ .

فى مكان محدد وفى زمان محدد وفى ظرف محدد وفى مرحلة محددة وفى حالة محددة تعهد ملكان محمدا بإعداد وتهيئة . أما صورة وكيفية الإعداد والتهيئة فالجزم هنا يفتح الباب لاعتراضات بعضها مبرر وبعضها لا مبرر له .والنفى هنا تهور ومصادرة لأساس من أسس الرسالات السماوية ، وهو أن لا أحد من البشر يمكنه تلقى الرسالات بدون إعداد أو تهيئة مسبقة ، ويختلف هذا الإعداد وتلك التهيئة على قدر تلك الرسالة ، فإذا كانت هى آخر الرسالات من السماء إلى البشر وإذا كانت للبشر أجمعين ولكل زمان ولكل مكان ، وتتضمن معجزة من أعظم وأكبر وأقدس المعجزات ، فعلى قدر هذا يكون الإعداد والتهيئة .

وحينما ننظر إلى ما فعله وأنجزه محمد على مدى الثلاثة والعشرين سنة وهذا التغير الجذرى والشامل فى العالم وفى النفس الإنسانية ، فلابد أن يكون هناك مراحل من الإعداد ووسائل وأساليب من التهيئة تخضع للعقل وللطبيعة البشرية وسنن الكون ، وبعضها خارج نطاق العقل وفوق الطبيعة البشرية . " وشئ واحد هو الذى نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، إن بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشر ((موجات)) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين – بتولى الله لها – لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ، ولا تهتز لها.

وبذلك يكون جهد المرسلين متابعة الترقى لا فى مقاومة التدنى ، وفى تطهير العامة عن المنكر لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ٥ : ((ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينة من الملائكة . قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ، إلا إن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير)) .

وفى حديث عائشة ، قال لها رسول الله ٥ : ((أغرت)) ؟ قالت : وما لمثلى لا يغار على مثلك ؟! فقال لها رسول الله ٥ ((لقد جاءك شيطانك)) قالت أومعى شيطان ؟ قال : ((ليس أحد إلا ومعه شيطان)) ، قالت : ومعك ؟ قال : ((نعم ولكن أعاننى الله عليه فأسلم ، أى انقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهجس بشر.

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد ٥ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبيعة الإنسانية ومفاتن الحياة الأرضية "[1] .

٥ الوراثة :

قد يظن البعض أن العوامل الوراثية تؤثر فى الشخصية تأثيرا قسريا أى بدون إرادة من الشخصية ، وهذا خطأ ، فليست الوراثة قوالب جامدة تصوغ الشخصية وتشكلها تشكيلا لا انفكاك منه ، فلا العلم أثبت أن للوراثة كل هذا التأثير ، ولا الواقع المشاهد أكد على هذا الأمر ، ولا المنطق والعقل أقرا بذلك ، لأن بيد الشخصية - وقد توافر لها الإرادة والوعى - أن تفسح من مجالات للتأثيرات الوراثية ، وتصل بها إلى أقصى مدى وأبعد شوطا ، وتؤصلها وتؤكدها ، بل تضف إليها من عندها ما يؤكدها ويجعلها قانونا معترفا به ، وبيد الشخصية - كذلك - أن تحصر تلك المؤثرات الوراثية فى أضيق نطاق ، بل أن تعمل على تبديدها ومحوها والخلاص منها بل وتأتى من التصرفات والأفعال ما يدحضها ويعارضها .

١- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالى - صفحة (٥٥)

إذن الوراثة ليست ضربة لاذب ، وإن جازت قوانين الوراثة على كل الكائنات ، فإنها لا تجوز مع الشخصية الإنسانية ، لأن هنا يتوافر عنصر الإرادة والوعي .

وقد تقوى العوامل الوراثية في عائلة من العائلات ، وتصبح تلك العوامل عناوين يندرج تحتها الأجداد والأباء والأبناء ، ويصبح كل فرد ينطق بأثر تلك العوامل ، وتصبح العائلة مميزة وفارقة بين الكثير من العائلات ، ويعترف لها من حولها بتلك المميزات التي اتصلت بين الأفراد ، ويقوم أفراد تلك العائلة بتأصيل والتأكيد على تلك الميزات . والعمل على نشرها وذيوعها والدعوة إليها لا سيما وإذا كانت تلك المميزات والصفات تدعو إلى الفخر والاعتزاز . فهي تقود وتدفع أصحابها إلى الشرف والأريحية والنبل .

وتتوزع تلك الصفات والخلال بين أفراد العائلة بنسب متفاوتة ، فمنهم من تظهر فيه تلك الصفات ظهورا جليا وواضحا ، ومنهم من تظهر فيه بصورة ضعيفة ومتوارية وغير مباشرة ، ومنهم من تتجسد فيه تلك الصفات ويجسدها باللحم والدم والأعصاب . وبالتالي يتحول إلى قيمة في حد ذاته أو معايير ومقياس يقاس به الأشياء والنظائر .

ونحن هنا لن نتحدث عن أباء وأجداد النبي لنثبت الأثر الطيب والذكي والطاهر الذي ورثه الأباء والأجداد للنبي ، لأن البرهان القاطع والدليل الناصع على طيب ونقاء وطهر هولاء هو النبي ذاته ، فيه يدلل ويبرهن على كرم أجداده وليس العكس ، ولكن جريا على سنن الوراثة واسترشادا واستهداءا بقول الرسول ٥ ((تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)) وقوله : ((ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، ولا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما)) .

واتساقا لدراستنا لشخصية النبى ، سنقف وقفة مع الآباء والأجداد لندلل أن الشخصية لا تتكون من فراغ ، أو تكون نهبا لأى تأثيرات عشوائية ، أو تخضع لمؤثرات تعتمد على الصدفة ، بل لنؤكد أن هناك أسسا ثابتة إن توافرت لها الظروف والأحوال سيكون لها تأثير بالغ فى الشخصية . وخروج النبى من تلك العائلة ليس بالمستغرب ولا هو بالعجيب، بل لم تكن هناك أسرة أخرى مرشحة لخروج النبى من بين أبنائها إلا تلك الأسرة ، فلها تاريخ مشرف فى خدمة بيت الله الحرام وخدمة زواره ، والأثر الطيب والعظيم الذى تركته فيمن حولها ، وتلك الألسنة التى تقر وتعترف وتشهد بما حظيت به تلك العائلة من المكرمات والمناقب التى لم تأت مصادفة ، ولكن كانت من خلال المجاهدة والكفاح والتضحية بذات النفس وذات اليد والزام النفس بأسلوب معين فى الحياة ، ليس فقط لينالوا الحمد والثناء من الناس ، ولكن لأن تلك طبيعة وخليقة فى شخصياتهم ، " منذ ثبت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية ، وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس ، ولم يقم بهذه الأمانة أحد كما قام بها أجداد النبى ؛ من بنى هاشم ، فقد حفظوا حقها ، وعرفوا سمتها ، بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة ، وبدا منهم الإيمان بها فى مأزق الشدة التى يمتحن فيها الإيمان بحب النفس وحب البنين فيغلب الإيمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنيه "[٢] .

وأى جماعة أو فئة أو عائلة تتصف بتلك الصفات ، لابد وأن تمتحن وتمحص ليعرف هل الاتصاف بتلك الصفات للشهرة والصيت ولمنفعة مادية ، أم

٢- مطالع البطة المحمدية أو مطالع النور – عباس محمود العقاد – صفحة (١٨٩)

أن الأمر أمر صفات جوهرية فى الشخصية ... وعائلة النبى أبتليت بعائلة أخرى أرادت أن تنازعها وتنافسها فى تلك المكانة ، وهى عائلة (حرب بنى أمية) .

" وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف ، فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون ، ومهما تجد من ندين متناظرين فى هاشم وأمية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء .

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الاجماع أو ما يشبه الاجماع على أخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الأسرتين ، ويبقى الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه ، ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية، تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب ، إذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : ((أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل منك صفدا وأطول منك مذودا : أبوك معاهر وأبوه عف : وزاد الفيل عن بلد حرام)) .

ويقول الكلبى فى أبناء عبد المطلب ((كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون بالأبصار)) " [٢٦] .

وتتجمع كل تلك الفضائل والمكارم والمحامد فى شخص واحد ، وتتكثف وتتركز ليكون بمثابة العنوان أو البرهان على أن تلك العائلة عريقة وأصيلة هى تلك الصفات ، وأن كل من حولها من عائلات قد يئسوا أن ينافسوها أو يجاروها فيما تفوقت فيه .... وهو عبد المطلب جد النبى . " كان عبد المطلب متدينا صادق اليقين مؤمنا بمحارم دينه فى الجاهلية لأن ثقة الإيمان طبيعية فى وجدانه وهو أول من

٢٦- المرجع السابق صفحة (١٩٠)

حلى الكعبة بالذهب من ماله . ويعنينا أنه كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار.

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الأسماء فى جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة .

بل كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولا تصدر من غيره وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة " [٢٧] .

" هذه هى ((المطلبية)) التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم لا تهور مع القوة الطاغية ولكن لا خضوع لها بل وضع لها فى موضعها ، وقول يناسب كل مقام ، فإذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن ، فهناك الجواب الفعال الذى يغنى ما ليس يغنيه المقال : ما سألت عن الإبل لأننى أضن بأثمانها فإننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكنى سألت عنها لأنها موضع سؤالى وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من أربه ينفى الثقة بالبيت وبالله " [٢٨] .

سيد مكة ، وخادم شريف وعزيز ونبيل من خدام البيت الحرام ، أصبح التدين لديه فطرة وغريزة مركوزة فى طبعه ، وملمح أصيل من ملامح شخصيته تفيض منه فيضا على أبنائه ، ويتلقونها كخير ما يتلقى الأبناء عن الآباء ، وقد كان لديهم الاستعداد الفطرى والتقبل الوراثى والترحيب الخلقى ، عائلة لا نظير لها فى الاعتصام بالفضائل والخلق الكريم " أسرة لا تخرج النبوة ، وما خرجت قط من خير منها ، ونشأة النبى ﷺ فيها أصدق المقدمات التى قلنا أنها مقدمات التمهيد

٢٧- المرجع السابق صفحة (١٩٤)
٢٨- المرجع السابق صفحة (١٩٦)

والتحضيرَ إلا أنها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر.

أسرة عزيز الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة "[٢٩] .

وكان عبد المطلب – جد الرسول – قد نذر نذرا إن ولد له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة " وتوافى بنوه عشرة آنس منهم المقدرة على أن يمنعوه ؛ فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا ، وفى سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قدح ، وأخذها عبد المطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل فى جوف الكعبة ، وكانت العرب كلما أشتدت الحيرة فى أمر لجأت إلى صاحب القداح كى يستفتى لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح . وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه فلما ضرب صاحب القداح القداح التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها لينحره أبوه ، خرج القدح على عبد الله فأخذ عبد المطلب الفتى بيده وذهب به لينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين أساف ونائلة . إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به أن لا يفعل وأن يلتمس عدم ذبحه عن هبل عذرا ، وتردد عبد المطلب لدى إلحاحهم ، وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة ؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومى : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه وتشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عرافة بيثرب لها فى مثل هذه الأمور رأى . وجاءوا العرافة فاستمهلتهم إلى الغد ثم قالت لهم كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الأبل قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم تقربوا وقربوا عشرا من الأبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا الإبل حتى يرضى ربكم . وقبلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون فى الإبل حتى بلغت مائة عند ذلك خرجت القداح على الإبل ، فقالت قريش لعبد المطلب وكان

٢٩- المرجع السابق صفحة (٢١٥)

أثناء ذلك واقفا يدعو ربه : قد رضى ربك يا عبد المطلب قال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، وفى المرات الثلاثة خرجت القداح على الإبل فأطمأن عبد المطلب إلى رضاء ربه ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع "[٣٠].

هذه الحادثة – الفداء – تدل بلسان الواقع والوقائع على مقدار ما بلغته العاطفة الدينية والطبيعة التى جبلت على الإيمان والوفاء بما يقتضيه هذا الإيمان يقوم عبد المطلب بنذر للآلهة ، ويرزق بعشرة أبناء ، وبدون تردد أو مراجعة يأخذ الابن الذى وقع عليه الاختيار للفداء وهو والد النبى ، ويقصد به مكان الذبح كى يوفى بنذره ، الغريب فى الأمر أنه لا هو تراجع ، ولا أحد من الأبناء راجعه ، ولا عبد الله اعترض على هذا الأمر ، لقد استسلم الجميع ؛ لأنهم رأوا أن عدم إيفاء النذر قد يتسبب فى غضب الآلهة ، وهم يقدمون بالتضحية بكل غال فى سبيل رضا الآلهة أو قل أن تلك غريزة تتنزى فى كيانهم وشخصياتهم ، أنهم طالما وعدوا لا بد أن يفوا بهذا الوعد ؛ لأن نقض العهد والاخلال بالوعد نوع من اللؤم لا يليق بهم ويعارض ويخالف ما طبعوا عليه " ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لأنه سلم حياته فدية لأحوته ، ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب ومن يفعل ذلك ينبئ عن إيمان قوى بالواجب وإقدام على الموت فى ريعان الشباب ، وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة ، فكأى من رجل لا ينكر الدين ولا يمرق منه إذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه "[٣١]

هذا هو الجد .

وهذا هو الأب .

وهؤلاء هم الأعمام .

٣٠- حياة محمد – د. محمد حسين هيكل – صفحة (٩٥)

٣١- طوالع البعثة المحمدية أو مطلع النور – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٢٦)

لم تعد العاطفة الدينية لديهم تتملكهم فى أوقات معينة ، أو فى أماكن وأحوال وظروف محددة ، ولكن العاطفة الدينية تملأ أفئدتهم كل وقت وكل حين . لا بل هم يجسدون تلك العاطفة وهذا الميل كأروع وأقوى وأجمل ماتكون العاطفة ويكون الميل .

وكأن كل تلك الروافد كانت تصب فى مجرى واحد متجمعة لتمد هذا النهر المقدس بمياه مباركة طيبة . إنها أرومة طيبة وما كانت لتخرج إلا غصنا ذكيا طاهرا نقيا ، لقد كان محمد يمثل قمة وذروة هذا التمام والكمال والنزوع والميل الدينى ، بما أعدته وهيئته الوراثة ، وجاءت النبوة لترتفع بهذا الإرث لتطوف به وتشرف به إلى أفق عليا من التمام والكمال الإلهى .

ولكن محمد - ﷺ - لم يستقبل تأثيرات الوراثة استقبالا غفلا ، ولكنه نقاها وصفاها لتتفق وتنسجم مع الفطرة السوية ، فقد اخضع كل ما يتنزى فى كيانه من عاطفة وميل ونزوع للتأمل والنقد . إن تلك الأيام والشهور التى قضاها منفردا ومنعزلا لم تمض بدون أن يكون لها ثمرة أو نتائج للتفكر والتأمل . ولسائل أن يسأل : إذا كان أجداد وآباء محمد بهذا الشغف والولع الدينى فلماذا لم يسر محمد على طريقتهم ، لقد أعرض عما كان يعبد ويقدس ويبجل أهله وقومه ، لقد خالفهم فى كل شئ وعارضهم ، فلم يسجد لصنم ، ولم يطف بوثن ، ولم تلمس جوارحه أى ميل أو نزوع نحو عبادة العرب ؟.

" ولا يخفى أن الوراثة فى الطبائع لا فى الشعائر وظواهر العبادة فمن كانت عنده عقيدة الإيمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء ، فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال ، فإن الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه ولا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته

الموروثة على سلاحه فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه وفى ميدان غير ميدانه وقد يبذل المال لإقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال إلا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء . وهذه الطبيعة هى التى ينظر إليها فى مناقب الأسرة الموروثة فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ، ويتذرع به إلى الرئاسة عليهم – لما كان هو عبد المطلب الذى يورث منه خصال الصدق والإيمان ، ولكنه تورث منه هذه خصال الصدق والإيمان ، ولكنه تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى ، وحين يدين الناس بما يدين به فى نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس "[٣٢] .

وحينما يختار عبد المطلب لأحب أبنائه – عبد الله – زوجة فإنه سيختار امرأة كريمة المنبت طيبة الأصل ، أسرتها تشابه أسرته فى الكثير من الفضائل والمكرمات وتجاريها فى الخصال والمناقب ، ولا شك ان الرجل قد بحث كثيرا عمن تناسب ابنه أو عن تلك العائلة التى سيرتبط معها برباط النسب والمصاهرة أو أن تلك العائلة لابد أن تكون من أشرف وأكرم وأعز العائلات فى مكة ، فوقع اختياره على تلك الفتاة الكريمة لابنه العزيز عليه " أبوها ((وهب)) سيد بنى زهرة وجدها عبد مناف من زهرة الذى يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف من قصى فيقال: ((المنافان)) وتعظيما وتكريما . وجدتها لأبيها : ((عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية)) إحدى اللواتى اعتز بهم الرسول فقال : ((أنا ابن العواتك من سليم)) .

ولم يكن نسب ((آمنة)) من جهة أمها دون ذلك عراقة وأصالة ، فهى ابنة ((برة بنت العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى)) وجدتها لأمها ((أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى)) ووالدة أم حبيب ((برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر)) .

٣٢- المرجع السابق صفحة (٢٠٤)

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت ((آمنة)) لتضلع بعبئها الجليل فى أمومتها التاريخية ووراثات مجيدة ، أهدتها إلى ولدها فجمعت له عز المنافين : ((عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصى بن كلاب وجعلته ﷺ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه ابن عباس : ((لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرها)).

وعن ((أنس)) أنه قال : ((قرأ رسوا الله ﷺ : ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم)) - بفتح الفاء - وقال : أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا)) [٣٣].

٥ أثر الوحى فى شخصية محمد ﷺ

لقد كان للوحى أثر بالغ فى شخصية محمد ، وهذا الأثر يمتد حتى قبل أن ينزل الوحى عليه ؛ لأن نزول الوحى يستدعى إعدادا وتهيئة ، ولا نبالغ إذا قلنا وما يزال الشخص جنينا فى بطن أمه بل قبل ذلك وهو فى صلب أبيه " كل ما نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون لتلقى الوحى الإلهى ، وأن لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى أيام ولا فى شهر ولا سنوات ، ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع " [٣٤]

فالتهيئة والإعداد يمتددان على مدى الحياة وبصفة مستمرة لا تتوقف فلابد وأن تكون كل خلية من خلايا هذا الشخص على استعداد وقابلية وتقبل وقدرة وتحمل واستيعاب وفهم لما يأتى به الوحى ، ولا يتوقف الأمر على ذلك بل تأتى مرحلة أخرى وهى مرحلة التبليغ ومكاشفة العالم بما نزل عليه ، واتخاذ وتبنى كل الطرق والأساليب لإقناع العالم بقبول ما أتى به الوحى ، والقدرة على قبول

٣٣- أم الرسول محمد آمنة بنت وهب - د. بنت الشاطئ صفحة (٧٩ - ٨٠)
٣٤- عبقرية محمد - عباس محمود العقاد صفحة (١٥٥)

التحدى والوقوف موقف الند للند إذا أعلن الآخرون على الدعوة وصاحبها العداء ، وتلك مرحلة أخرى من مراحل الدعوة ، بل أهم وأخطر المراحل لأنها نوع من الابتلاء والامتحان للدعوة وأصحابها ، ولا يظهر جوهر الدعوة ومعدن أصحابها إلا فى لحظات الشدة والتمحيص ، ولابد أن تتعرض الدعوات لتلك اللحظات ، ولابد أن يكون صاحب الدعوة معدًا ومهيأ للصمود ومواجهة ما تأتى به الأحداث من تمحيص وصهر وزلزلة .

- **إعداد الذات :**

ولأن الوحى أمر عظيم وجليل شأنه ، فإن الذات الإنسانية قد لا تتحمله لأن قدرات الذات الإنسانية جد محدودة ، وهذا الأمر يفوق قدرات أى ذات إنسانية ، بل إن ذات النبى لتجهد وترهق أيما جهد وأيما إرهاق وهى تتلقى الوحى " من الأقوال المتواترة أنه كان ﷺ إذا نزل عليه الوحى نكس رأسه وكرب لذلك وتربد وجهه وأخذته البرحاء حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى وسمع عند وجهه كدوى النحل ، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء . وقد شاب فقال : شيبتنى هود وأخواتها . وعدد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى فى القرآن الكريم "[٣٥]

نعم إن الأمر جليل ، أمر هذا الوحى ، وكما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ المزمل ٥

" هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف .. والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر ، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الحشر:٢١ فأنزل الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه . وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

٣٥- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٥٦)

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوحود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذى تهيأ لرسول الله – ﷺ – لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات ، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل . " [٣٦] .

وخلال هذا الاستعداد ، الذات فى حاجة إلى أن تكون نفسها وليس شيئا خر ، لا تشتت ، لا تصارع ، لا شواغل ، لا تجاذب ، لا شك ، لا إرتياب ، لا خور ، ولا ضعف ، لا كدر ، لا ظلام ، لا إبهام ، لا غموض .

حالة نادرة من الخلاص الوجودى ، لتعود أشد اتصالا بجوهر الوجود الحق لا شئ يعين ويساعد الذات للوصول إلى تلك الحالة مثل العزلة والخلوة ، فهما تيحان للذات أن تستدعى ما فى داخلها من قوى وطاقات أن تصل وتتصل جوهر وحقيقة هذا الوجود " كانت الخلوة لمحمد أعظم مرب ، فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ، ولذلك اطلقت عليه الآثار ((صفاء الصفاء)) وتشربت روحه رويدا رويدا روح الصحراء التى لا تحد ، فبصرته بعظمة الله اللانهائية ، وفى الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته فى قوة حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من كارلايل ، المفكر الإنجليزى المشهور ، صيحة الإعجاب التى يقول فيها : ((حقا إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ومن الطبيعى أن تجتذب أفئدة بنى البشر فيستمعوا إليها ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها ؛ فكل ما عداها هباء إذا قورن بها " [٣٧] .

٣٦- فى ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد السادس - صفحة (٣٧٤٥)

٣٧- محمد رسول الله - إيتيين دينيه وسليمان إبراهيم - ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود- صفحة (١٠١)

" إن هذا التأمل ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة ليخرج منها مطهرة صافية ، إنه مصنع تكتيل القوى الروحية رغم أنها خفية وأنها لا شعورية ، هذه القوى الكامنة التى تتكتل بالمراقبة والتأمل تمكث مستترة مجهولة حتى من هؤلاء الذين تنطوى عليها جوانحهم ؛ وما مثلها فى ذلك إلا مثل النار الكامنة فى أشجار الغابات ، فإذا ما أثارتها شرارة واحدة اشتعلت ملتهبة جارفة صاعدة إلى عنان السماء فتبهر العالم " ٣٨ .

○ الثمرة ..... النتيجة – العودة إلى الفطرة :

كان محمد يقترب شيئا فشيئا – ببطء ولكن فى ثقة ، فى تمهل ولكن فى قناعة كاملة – من حالة من حالات التواجد تعلو فوق الزمان والمكان ، لا ندرى ما هى ، ولا نستطيع أن نرجع مشاعره وأحاسيسه فى تلك الحالة ، وربما هو لا يدى حقيقتها ، حالة تجد فيها الروح ما تبتغيه ، ما تصبو إليه .

أو منطقة أو بقعة يقترب منها تحتويه أو تشتمله ، تشبع فيه فيوض من الأمن والسلام والسكينة ، مهد روحانى تظلله أطياف مقدسة وتنتشر على جوانبه أنوار ملائكية ، تهدهده أصوات صادرة من عوالم علوية تسرى إلى القلب فتنشر فيه السعادة والسرور والإنشراح .

إنه إنجاز روحانى لنفس ما فتئت يتردد فى جوانبها البحث عن الحقيقة يدفعها شوقها للبحث عمن يرشدها ، يهديها سواء السبيل .لقد تخلص محمد ﷺ خلال الخمس عشرة سنة – سنوات التأمل – من كل الحجب التى تحجب الفطرة السوية كما خلقها الله ، كل ما من شأنه أن يكدر أو يعكر صفاء تلك الفطرة أو يطمس ملامحها ومعالمها ، أو يغير من طبيعتها أو يحول من مسارها أو يبدل من نهجها ، رحلة للعودة إلى النبع الصافى والمصدر الإلهى ، إنها عملية تجلية وصهر وصقل لكى يتألق المعدن الأصيل لهذه النفس النبيلة ، لقد وصلت

٣٨- المرجع السابق – صفحة (١٠٣)

النفس بعد كل هذا إلى أبواب عالم آخر . وصلت إلى الحدود . حيث نهاية عالم وبداية آخر . أوشكت فترة الإعداد والتهيئة على النهاية . مرحلة انتهت لتبدأ المرحلة الكبرى . إن النفس الآن فى كامل لياقتها أنها فى حالة صفاء لا مثيل له وشفافية لا نظير لها . حالة من الوعى والإدراك بكل خلجاتها وسكناتها بالوجود حولها،كل حواسها متنبة متيقظة لأقل نأة أو همسة أو هرة . إن مراكز الاستقبال فى نفسه فى كامل استعدادها . وبالفعل استقبلت مراكز الاستقبال نوعا من البث والإرسال ولكنه بث تجريبى أو إرسال أولى للتدريب والتمرين " قال رسول الله . ((طيلة العشرة شهور التى تقدمت الوحى . كان يتخلل نومى نور باهر يشبه فلق الصبح وكنت حينما ابتعد عن الديار أسمع أصواتا تنادى يا محمد ! يا محمد ! فكنت أنظر يمنة . ويسرة ومن خلف فلا أرى إلا شجيرات وصخورا فيأخذنى القلق والحيرة . إننى ما أبغضت شيئا بغضى للكهان والسحرة وقد خشيت أن أكون قد أصبحت على غير علم منى واحدا منهم فيكون الذى ينادينى - خفيا مستورا - تابعا من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء فيساعدونهم بذلك على القيام بمهمتهم الآثمة " [٣٩] .

- الحالة استغرقت عشرة شهور.
- تلك الفترة التى سبقت الوحى .
- نور باهر يراه كفلق الصبح أثناء نومه .
- يسمع أصواتا - وليس صوت واحد - تنادى عليه باسمه .
- لا يرى مصدر الصوت .
- إحساس بالقلق والحيرة ينتابه .
- الخوف أن يكون قد تحول - على غير علم أو إراده أو وعى منه - إلى واحد من الكهان أو السحرة .

٣٩- المرجع السابق - صفحة (١٠٣)

- الشك فى أن يكون الذى يناديه تابعا من الجن .

ولنا أن تساءل : ما حقيقة هذا النور الباهر الذى يراه أثناء نومه ؟

وما مصدر تلك الأصوات ؟

كل هذا أدخل على محمد الشعور بالقلق والحيرة .

تحول القلق والحيرة إلى إحساس بالخوف .

الخوف أن يكون قد تحول إلى كاهن أو ساحر . فهو بمقتهم أشد المقت .

على هذا فالذى يناديه تابع من الجن !

○ محنة شخصية ومأزق نفسى

هذه الحالة إذا انتابت شخص غير محمد . قد لا يشكل الأمر لهذا الشخص أى محنة أو مأزق . وقد لا يعير الأمر أى اهتمام . حتى لو اهتم به فماذا يفعل ؟

ولكن الأمر مع محمد غير ذلك . لقد حاول وجاهد طوال السنوات الماضية – وعلى مدى الخمس والعشرين سنة – إلا يكون شيئا غير محمد ... لقد ابتعد بقدر ما يستطيع عن كل ما يشغله عن ذاته أو يؤثر فى ذاته أو يغير أو يبدل من ذاته . إنه لا ينتمى إلى أى شئ ولا يتبنى أى شئ . إنه صفاء خالص لا يشوبه شئ . إن متعته وسعادته وأمنه وسلامه فى هذا الصفاء الروحى الوجدانى . إن اختياره هذا المكان النائى البعيد المنعزل عن العالم ليدل دلالة واضحة وقاطعة على المسار والنهج الذى اختارته تلك الذات لنفسها .والمداومة على هذا البعد والعزلة أياما وليال وشهور ليدل – أيضا – إن هذا الأمر أصيل فى الذات . بل هو من مكونات الشخصية وأسسها .

فما هذا الذى يغزوه ؟

وما هذا الذى يخترق جدران تلك الذات ؟

أهذا هو نهاية المطاف ؟

أهذا هو نتيجة العزلة وطول التفكير والتأمل ؟

أم أن ما يحدث مقدمة لشئ – وليس نهاية – يشعر به شعورا مبهما يكاد لا يتبينه ؟

شئ ما يقترب من ذاته ، ولكنه لا يدرك حقيقته .

ولأنه كان فى حالة صفاء مع ذاته وفى حالة وعى وصدق وقرب ، فإن أى تغيير طفيف وتبدل هين يشعر به ، وعلمته الخلوة والعزلة والتأمل والتفكر أن يكون رقيبا على ذاته ، بل مستكشفا ومتنبئا بما قد يطرأ على تلك الذات من تبدل أو تغير.

وها هو يشعر إن هناك تبدلا وتغيرا .

وهو لا يدرى أهذا التبدل والتغير صادر من خارج الذات ، أم نابع من الذات نفسها ؟

كذلك لا يدرك نوعية هذا التغير والتبدل .

ولأنه يجهله فهو يخشاه .

ولأنه لا يعرف حقيقته فهو يخافه .

ولأنه لا يتيقن من شئ فهو يشك فى كل شئ .

" فنحن مضطرون إلى أن نرى فى هذا الشك نتيجة لحالة شخصية عارضة وجد فيها النبى نفسه فجأة أمام مبادئ شعور وأمام استشعار لبعض الأشياء الغريبة تمس من قريب مصيره الخاص .

فالام يعزى هذا الإحساس الذى يطوف الآن فى أنحاء نفسه ، وهو يخز بصورة مؤلمة طبيعية فكرة الموضوعية ؟ هل كان ذلك مجرد حركة للاشعور أو إلهاما بحل قريب وغير عادى للمشكلة ؟

إن بعض الفصائل الحيوانية تُلهم الطوارئ والاضطرابات التى تصيب مساكنها عما قريب . فهذا النمل الأمريكى يغادر مساكنه قبيل اندلاع الحريق فيها

دليلة . وفى جنوب (قسنطينة) نوع من الحيوانات القارضة يبرح أرضه فى مسارب الأودية قبيل الكوارث الطبيعية .

فهل كان عند النبى ما يشبه هذا الإلهام ، أى التنبؤ بالظاهرة القرآنية التى ستلهمه وتغمر وجوده كله ؟

فلو قلنا إن ذلك من عمل اللاشعور ، فيجب أن نتطبق هذه القاعدة على تفسير مادة القرآن كلها وتفسير فكرته المتصلة كما نفسر أيضا أعراض الظاهرة وطوارئها عند النبى ، ولكن هذا – كما سنشير إليه فيما بعد – ليس أبدا ممكنا "[٤٠]

نحن نعلم – بعد ذلك – إن ما طرأ على الذات المحمدية هو بسبب اقترابها من لحظة التفجر أو التفتح لمرحلة النبوة ، أو مرحل استقبال أو تقبل الفيض أو الوحى ، فكلها أعراض انتابت الذات قبيل مرحلة الوحى ، وسيعلم النبى – بعد ذلك – بأن هناك ارتباطا وثيقا بين تلك العوارض والوحى ، ولكنه قبل ذلك وقبل معرفته بأمر الوحى ، الأمر بالنسبة له كان يشكل محنة ومأزقا هو فى حاجة ماسة للخروج منه ، وحينما نشعر الذات بأنها فى مأزق ، فإنها تطلب العون من الآخر تكاشفه بمشاعره وأحاسيسه ، وتصارحه بمحنته ومأزقه ، فإن نفسه تنوء بهذا الحمل الثقيل ، ولا يجد الرسول سوى زوجته الحنون ((خديجة)) .

" ومع ذلك فإن النبى سيكاشف زوجه الحانية بهمومه ويشكو لها بمرارة ، إذ يظن به الجنون والمس ، ويرى أن سحرا مشئوما قد أضر به . ولكن (خديجة) الفاضلة تواسيه وتهدئ روعه قائلة : ((والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق))"[٤١]

٤٠- الظاهرة القرآنية – مالك بن نبى – ترجمة د. عبد الصبور شاهين – صفحة (١٨٢- ١٨٣)
٤١- المرجع السابق – صفحة (١٨٣)

لم يعرف حقيقة محمد كما عرفته تلك الشخصية العظيمة ، إن فطرتها السوية ، وبصيرة المرأة التى نادرا ما تخطئ أدركت منذ زمن عظمة وسمو ورقى تلك الشخصية ، وعلى ما تشتمل عليه من فضائل ومكرمات ، فقررت أن تتزوجه ولا تبعد عنه ولا يبتعد عنها ، والآن تساندها بصيرتها ، وتصدقها فطرتها إن الله لن يخزى محمدا لما تتميز به شخصيته . تعيد (خديجة) إلى نفس محمد الهدوء والسكينة والأمن ، وتهدئ من روعة وتنزع تلك الوساوس من صدره ، ويسترد محمد رباطة جأشه وثقته فى نفسه ، ويعود إلى ما كان عليه من عزلة وخلوة ، ليمارس عادته المحببة من تأمل وتفكر .

ولكن تنتابه الحيرة والقلق مرة أخرى ، شئ ما يسرى إليه ، يشعر أن ذاته مرصودة ، مراقبة ، ذاته أصبحت مركزا لأشياء غامضة مبهمة ، يشعر بوطأة ذلك أما لماذا يقلقه ويحيره هذا الشعور والإحساس ؟ لأنه غير طبيعى وغير مألوف ، فربما تكون ذاته نهبا للشياطين والجن " وعلى كل حال فإننا نجد النبى بعد هذه التهدئة يستأنف طريقه إلى عزلته ، ويهاجمه الشك من جديد ، ويسيطر عليه الاضطراب الشديد ، الذى يطبع أحواله النفسية فى ذلك العهد ، وهو يحتاجه الآن أكثر من ذى قبل لأنه يشعر (بحضور) أشبه بطل يطوف حوله .

إنه يخرج من عزلته ، يذرع تلك الدروب الملتهبة فى جبل النور ، وهو يضيق بذلك المجهول الذى يشعر به معلقا فى نفسه ولا حول ولا قوة إزاءه ، ها هو ذا مشرف على واد ، يرى مخرجا من مأساته فى أعماق الهاوية فيكاد يستسلم لفكرته المتغلبة عليه ، ويخطو خطوة إلى الأمام "[٤٢] .

نعم ، هو ذا شأن تلك الذات العظيمة ، فإما أن تعود إلى سابق عهدها من الهدوء والسكينة والأمن والسلام ، وإما أن تترك هذا الوجود الذى لم تتعوده ولم تألفه

٤٢- المرجع السابق – صفحة (١٨٤)

ولا تحتمل ولا تقدر أن تتكيف معه ، بل لا ترضاه ولا تقبله .... لقد وصل إلى طريق مسدود ، ولكن فجأة تنفتح أمامه طاقات من نور .

" ولكن صوتا أسرع من إيماءته يوقفه : ((يا محمد ، أنت رسول الله حقا)) فيرفع رأسه ليرى الأفق مشعا يتلألأ نورا ، فينقلب مذهولا محيرا ، دون أن تزايل الرؤية ناظريه ، إنها فى كل مكان ... وفى جميع الأركان ... فيرتعد منها فزعا حتى يذوى إلى الأرض ، وحين يفيق يعود إلى مكة حيث يجد هنالك موضع سره العطوف ، فتفاجأ بمنظره المحزن وبحالته المحمومة ، وهو الذى تراه دائما مهتما بنفسه ، لا يغفل أى تفصيل فى هندامه ، ها هو ذا الآن بشعره الأشعث ووجهه المتقع وملابسه المغبرة ، ولكن خديجة الحانية تتغلب على جزعها وترعى زوجها وبكلمات حانية رقيقة تدخل السلام إلى نفسه الذاهلة فيأخذ طريقه إلى جبل النور" [٤٣] .

وقد يثور سؤال هنا : إذا كان كل هذا حدث لمحمد – خلال خلوته وعزلته لدرجة أنه خشى على نفسه – فلم واصل عزلته وخلوته ؟ أما كان الأولى أن يهجر تلك العزلة ولو إلى حين ؟

إن العزلة والتأمل والتفكر أصبحوا من سمات شخصية محمد الأساسية ولا يستطيع تبديل تلك السمة أو تحويلها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، هو يريد أن يعرف حقيقة ما يحدث له ؟ ما الذى انتابه ؟ وما الذى طرأ عليه ؟

وهجر العزلة نوع من الهروب من المواجهة .

وتأجيلها نوع من تعليق تلك المواجهة .

إن الأمر يمس ذاته فى الصميم ، ومتعلق بمصيره ، بأمنه ووجوده .

وشجاعته تمنعه من الهروب .

وجرأته لا تسمح له أن يؤجل تلك المواجهة .

٤٣- المرجع السابق – صفحة (١٨٥)

لذلك نراه يأوى إلى الغار مرة أخرى .

ويعود إلى عزلته كما تعود .

وكأنى به فى تلك المرة يصمم على أن يثبت ويواجه ويقف على حقيقة ما يحدث له . لذلك يجب أن يكون فى قمة التيقظ والتنبه . لا يغيب عنه أى شئ . إنه عبارة عن كتلة من الوعى والإدراك فى أقصى حالات توترها .

وتمضى الساعات بطيئة . ويزحف الليل على الكون . ويسجى محمد فى برده لينام . ولكن كيف لتلك الذات التى تحولت إلى وعى وإدراك أن تغفو ؟ حتى وإن نامت . فهى واعية ومدركة لما قد يحدث لها أو حولها .

وفجأة ينشق الظلام عن ملك متسربل بالرداء الأبيض . ويتشقق الصمت وينهار السكون . ويزدحم الغار الخالى بأنوار ملائكية . وتضوع جوانبه بعبق من الفراديس . ويقترب الملك من محمد الذى لا يستطيع أن يحول عينيه عنه أو يتحول عن مكانه . وعيناى الملك ترسل أشعة إلى عينيه تملأ كيانه بمشاعر وأحاسيس لا يدرى كنهها " قال الرسول ((أتانى جبريل فى غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . فغتنى به حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت ما أقرأ . فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ فقلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا . فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته ثم

قال ثانية : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . وانصرف وانصرفت راجعا إلى أهلى "[٤٤] .

○ لقاء ملك الوحى بمحمد ﷺ :

لا شك أن ملك الوحى حينما جاء محمدًا للمرة الأولى . لم يكن الغرض هو الوحى فقط . وإنما كان هناك أكثر من ذلك . وإلا إذا كان الغرض هو الوحى فقط لبدأت أحداث المقابلة من أول كلمة (اقرأ) . أو كان من الممكن أن يوحى إلى محمد ما يوحى بدون مقابلة من الملك . وينطبع فى قلبه - ﷺ - ما شاء الله . لقد سبق الوحى أحداث وأفعال قام بها الملك . كان المقصود بها محمد .

أول شئ نلاحظه . هذا الاقتراب الشديد والحميم من الملك لمحمد . ليس اقتراب فقط بل التصاق وملامسه وإشعار لمحمد بذات الملك . إن محمد تعرض لنوع من الكد والإجهاد والإرهاق والشدة والعصر من قبل الملك الذى كان معه نمط من ديباج - النمط نوع من البسط والديباج قماش سداه ولحمته حرير - فيه كتاب. ما هذا الكتاب ؟ هل هو القرآن الذى يطلب الملك من محمد قراءته ؟

وحينما قال محمد : ما أقرأ ؟ قام الملك وغت محمدا بما معه .

وكلمة (غت) من معانيها - كما جاءت فى القاموس - : ((كأنه أراد عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس فى الماء قهرا))[٤٥].

ومن معانيها ((يغلبه ويقهره))

ومن معانيها ((الجهد والإتعاب))

ومن معانيها ((المتابعة والموالاة))

٤٤- محمد رسول الله - إيتين دينيه وسليمان إبراهيم - صفحة (١٠٥)

٤٥- لسان العرب - ابن منظور صفحة (٣٢١٢)

إذن مع طلب القراءة – ومحمد يجهلها – أرهاق وإجهاد للذهن وتكليفه ما لا يطيق ، بل تكليفه شئ محال ، كيف تطلب من إنسان لم يسبق له القراءة من قبل ولم يتعلمها أن يقرأ ؟!

فى نفس الوقت هناك إرهاق لذات النبى نفسه ، وتكليفه ما لايطيق حتى قال محمد : (حتى ظننت أنه الموت) ففى تلك اللحظات تعرض محمد من الملك لشدة وإرهاق شعر خلالها أنه قريب من الموت .

إذن لم يبق لمحمد – فى تلك اللحظة – طاقة أو قدرة ليحتمل المزيد ، لقد وصل إلى نقطة أو خط النهاية ، الموت . وهل جرب محمد الموت من قبل بحيث يحكم أن ما يمر به هو الموت ؟

أم أن الإجهاد والإرهاق وصل بمحمد إلى الدرجة التى شعر فيها – لشدة وضغط الملك – أن هذا الإجهاد والإرهاق سيصل به إلى أن يفقد حياته ، والإنسان لا يقول ذلك إلا إذا كان ما يشعر به فوق الاحتمال ، وتعدى كل صور طاقاته .

إلا أن محمد لم يمت ، ولم يصاب بأى أذى .

إذن ما سبب تعريض ذات محمد لكل هذا الإرهاق والإجهاد ؟!

إنه تدريب وتمرين ورفع لطاقة وقدرة محمد ، إنه بمثابة تمحيص وتنبيه وإيقاظ لكل خلايا الكيان الإنسانى ، استفزاز لمخبوء ومخزون درجات التحمل والصبر والإرادة والتصميم والصلابة والقوة والمتانة والعناد ، فإذا استطاع محمد أن يتقابل والملك ويخرج من تلك المقابلة سليما معافى ، ولم ينهار ولم يصاب بأى أذى أو ضرر – سوى الاضطراب والجزع – فإنه على مواجهة ما دون الملك لأقدر ، وأى مشقة أو إجهاد أو إرهاق تهون بالنسبة لمشقة وإجهاد وإرهاق الملك .

وتكرر الأمر،أمر القراءة ، وأمر العصر والإرهاق والشدة .

ولكى يفتدى محمد نفسه من هذا الكرب والشدة يخرج من هذا المأزق سائلا : (ماذا أقرأ ؟)

وهنا خرج محمد من كونه ينفى علمه بالقراءة (ما اقرأ) ، إلى السؤال عن (ماذا أقرأ) .

وهنا بدأ الفيض الربانى من الملك على محمد .

وكأن الانتقال من (ما أقرأ) إلى (ماذا أقرأ) هو نوع من التحول والتبدل والتغير فى ذات محمد .

هو نوع من العبور والانتقال من كون إلى كون ، ومن حال إلى حال ، ومن شأن إلى شأن ، ومن أمر إلى أمر ، ومن عالم إلى عالم .

وكأن كل هذا لا يتم إلا بالجهد والمشقة والمعاناة ... انظر إلى انتقال الجنين من داخل بطن أمه إلى العالم الخارجى ، وما يتعرض له من عصر واجهاد ومشقة وتعب وإرهاق حتى يخرج إلى العالم سليما معافى .

إذن ما فعله الملك بمحمد قد أحدث تغييرا شاملا وممتد الأثر والمفعول فى ذات محمد .

أما نوعية هذا التغيير وما حدث بالضبط ، فنحن لا ندرى ولا نعرف عنه شيئا ، ولا حتى محمد نفسه ﷺ . إنما لا ينكر هذا التغيير فى الذات .

قد يكون نوعا من الإعداد والتهيئة من الملك بشأن ما سوف يوحيه ، وإن هذا الإعداد وتلك التهيئة خاصة بأمر الوحى فى اللحظة الآنية ومستقبلا .

قد يكون إمداد وشحن ذات محمد بطاقات وقدرات عصبية وعقلية ونفسية وجسمانية ليكون قادرا ومؤهلا لحمل الدعوة .

وقد يكون ما فعله الملك نوعا من إزالة وتبديد ومحو أىّ شك أو تردد من ذات محمد أن ما يحدث له تخيل من ذات نفسه ، أو أن ما يحدث له من فعل الجن والشياطين كما ظن من قبل . " لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو فى غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينيه ، وهو يقول له اقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحى ليست أمرا ذاتيا داخليا مرده إلى حديث النفس المجرد ، وإنما هى استقبال

وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات . وضم الملك إياد ثم إرساله ثلاث مرات قائلا فى كل مرة : اقرأ – يعتبر تأكيدا لهذا التلقى الخارجى ومبالغة فى نفى ما قد يتصور، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالا داخليا فقط " [٤٦] .

إن ما يحدث من الملك بمثابة عملية تطهير وتنقية وتصفية وصهر لذات محمد لإخراج ونفى أى شئ قد يكون مترسبا بالذات . أو أن ما حدث من الملك إخبارا لمحمد أن الأمر جد . لا هزل فيه . وإن الأمر ثقيل وشديد وصعب وعسير يستدعى القوة والصلابة والعناد . ومضاء الإرادة وعقد العزم وشحذ الهمة . وإن الأمر خطير متعلق بمصير البشرية كلها . ومتعلق بحياة الناس وعقائدهم وأفكارهم متعلق بكل شئ فى الوجود والكون . وإن هناك أمر وشأن عقيدة يبزغ إلى الوجود ليس من صنع ولا اختراع ولا تدبير إنسانى وإنما هو أمر إلهى صدر . وأن الوجود كله يخضع ويذل ويستجيب لأمر تلك العقيدة " وقد كان الله عز وجل قادرا أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذى كلمه ليس إلا جبريل · ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس – ولكن الحكمة الإلهية تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها وبيان أن شيئا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامى لم يطبخ فى ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام مسبقا ولم يتصور الدعوة إليه سلفا " [٤٧]

والأهم أن الأمر يتعلق بخالق الوجود ومبدع الكون . وأن الأمر بمثابة فتح باب للإنسانية لتعرف وتدرك وتفهم وتعى الكثير عن ذات خالقها .

كل تلك المعانى لا يمكن أن ينقلها الملك إلى محمد بالكلام . أو يمكن بالكلام . ولكن بالفعل ستكون أوقع وأشد تأثيرا وأبلغ فاعلية .

٤٦- فقه السيرة – د . رمضان البوطى – صفحة (٦٨)
٤٧- المرجع السابق – صفحة (٦٩) .

وكل تلك التغيرات والتبدلات والتحولات على ذات محمد يقبلها العقل ولا يرفضها المنطق . بل لو حدث أكثر من ذلك فلا مجال لإنكارها . فلابد أن تطرأ تغيرات أو أن الذات يداخلها ويلابسها ويشملها الكثير والكثير حينما تنتقل من كونها بشر عادى إلى كونها بشر نبى . والتغير الذى حدث تم ما بين (ما أقرأ) وبين (ماذا أقرأ ؟) .

(ما أقرأ) نفى .. اعتراف بالعجز وعدم المقدرة . مصادرة لكل الطاقات داخل الذات . إغلاق لكل المنافذ التى تطل منها الذات على العالم لتغير وتحول انسحاب من الوجود والتقوقع داخل سجن اليأس والإحباط . البقاء داخل شرنقة الحزن والمرارة والخوف .

(ماذا أقرأ ؟) إعلان صريح بقدرات وطاقات الذات . بحث دءوب عن تلك الطرق والسبل والوسائل والأدوات التى تمكنه أن يحقق تلك الأهداف الراقية والآمال السامية .... التسلح بالصبر والقدرة والتحمل والاستعداد لمواجهة العالم لإقناعه بأن لهذا الكون إله يتصف بكل صفات الكمال والجمال والجلال .

كانت البداية (ماذا أقرأ ؟) وكان جواب الملك : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق: ١ ـ ٥

يقول الرسول الكريم : (فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا) .

وهنا تلبست النبوة بمحمد . وأصبح يقرأ ما يوحى به جبريل . ويكتب فى قلبه ليتلوه بعد ذلك على أصحابه الأكرمين ." ومنذ هذه اللحظة أصبح لدى النبى الأمى شعور ((بأن كتابا قد طبع فى قلبه)) ولكن لم يكن له أن يتصفحه كما يشاء . ولا أن يطلع عليه كما يهوى . إذ إنه سيوحى إليه كلما دعت حاجة الرسالة

ولقد يتاخر الوحى ويبطئ ، حتى عندما تلح إحدى الحالات العاجلة · ولتكن حالة اتخاذ قرار أو سن تشريع لمناسبة معروضة على النبى "[٤٨].

لم تكن الآيات الكريمات التى قرأها جبريل على رسول الله مجرد كلمات تلقاها محمد ، وإنما مفردات ودعائم عالم قائم بذاته ، مفارق ومختلف عن العالم حوله ، بل عن عالمه الخاص به ، وهذا ما جعل اليقين يهيمن على محمد أنه رسول الله ، فليس هناك من صلة أو علاقة بين ما يسمعه من الملك ، وما سمعه طوال حياته ، وليس هناك علاقة بين ما حدث له من مقابلة الملك له ، وما يمكن أن يحدث للإنسان حتى ولو فى الخيال .

عالم يحتوى محمدا احتواءا ويشتمله اشتمالا ، ويملك عليه كل حواسه وجوارحه ،عالم دعائمه الأمر بالقراءة ، فهناك آمر وهناك مأمور ، الآمر هو الله والمأمور هو النبى ، وفحوى الأمر القراءة ، وكأن أوثق علاقة وأمتنها بين الله وعبده هى القراءة ، الباب الذى سيلج منه العبد إلى ملكوت الله ، أو المفتاح الذى سيمكنه من فتح تلك الأبواب المغلقة على العوالم العلوية ، تلك القراءة ليست كأى قراءة ، إنها فريدة فى نوعها لا مثيل ولا نظير لها ، لأن القراءة هنا بإذن وباسم ربك القائل والمتحدث هو الله عزوجل وليس أحد من الخلق سواء كان إنس أو جن ، أى اقرأ مفتتحا باسم ربك ، قل بسم الله ثم أقرأ "[٤٩].

والقراءة باسم ربك ؛ لأنه هو الذى خلق ، لا شريك له فى هذا الخلق وتتجلى عظمة وقدرة وجلال الخالق فى خلق الإنسان ، فقد خلقه من علق ، ويكرر الأمر بالقراءة لعظيم خطر تلك الدعامة ، وللتأكيد على هذا الأمر ومع القراءة يكرر لفظ (ربك) موصوفا بالأكرم ، وهى صفة من عظيم صفات الله عزوجل ، وطالما هناك قراءة فلابد أن يكون ثمة علم ، وطالما يوجد علم فلابد من الوسيلة لهذا العلم

٤٨- الظاهرة القرآنية – صفحة (١٦٨)
٤٩ تفسير الكشاف - المجلد الرابع – صفحة (٢٧٠)

وهو القلم . ولكن القراءة والعلم والقلم لم يكن لكل هؤلاء جدوى لو لم يخلق الله للإنسان القدرة على القراءة والتعلم . وهو العقل . فبدون هذا النور لم يكن يستطيع الإنسان أن يجلو عن نفسه ظلمات الجهل . وعن الوجود دياجير الظلام " وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال الأكرم (الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) تدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا . ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ونبه على فضل علم الكتابه لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة . ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا .ولولم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به "[٥٠] .

نعم . عالم تكون واكتملت جوانبه ووضحت معالمه وبرزت سماته وصفاته أمام محمد للوهلة الأولى . وكأن كل ما سياتى بعد ذلك هو توضيح وتفصيل وتفسير وشرح لهذا العالم الذى لخصه جبريل فى تلك الايات الكريمات " والمتأمل فى هذه الأيات الكريمة . يراها قد جمعت أصول الصفات الإلهية . كالوجود . والوحدانية والقدرة . والعلم . والكرم "[٥١] .

○ طبيعة الوحى :

كان ولابد منذ البداية أن يعرف محمد – ﷺ – طبيعة هذا الوحى أنه خارج إرادته . وهناك انفصال كامل وتام بين شخص الرسول والوحى . وإنه لا يملك إزاءه أى شئ . سوى أن ينتظر . وقد يقصر هذا الانتظار وقد يطول . وقد ينقطع الوحى لفترة ما . وفى أثناء مدة الانتظار وفترة الانقطاع . على الرسول ألا يداخله شك أو إرتياب . وعليه أن يطرد كل هاجس . ويبدد كل ظن . ويبعد كل

٥٠- المرجع السابق – صفحة (٢٧٠ – ٢٧١)

٥١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الخامس عشر – صفحة (٤٥٥)

إحساس أو شعور أن الوحي قد فارقه إلى غير رجعة ؛ لأنه ليس كفؤا أو أهلا لذلك ذلك لأن أمر الوحي متعلق بإرادة الله وحده عز وجل فإذا شاء أنزله . وإن لم يشأ لم ينزل على الرسول .

وقد كان انقطاع أو احتجاب الوحي عن رسول الله لمدة يقال إنها ستة أشهر ، ويقال إنها عامان . درسا عمليا . فقد تسرب إليه الخوف والشك والحيرة والقلق ، وكان الأمر شديدا عليه ، وفي غاية العسر والحرج والعنت وكأن تلك الشخصية العظيمة النبيلة رأت وجودها كله منحصرا في النبوة وتبليغ الرسالة وإن لم تكن نبوة أو رسالة ، فلا قيمة للحياة ولا معنى للوجود . " لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة ، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة ، لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه ، كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقي بنفسه منها ! ... إلى أن رأى ذات يوم الملك الذي رآه في حراء ، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول يا محمد أنت رسول الله إلى الناس . فعاد مرة أخرى وقد استبد به الخوف والرعب إلى البيت حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ المدثر: ١ – ٢ "[٥٢] .

إذن هذا الانقطاع للوحي كان فيه الخير كل الخير للدعوة وللرسول نفسه .

للدعوة : أنه لم يكن ثمة أحداث في تلك الأونة تستوجب نزول الوحي حتى لو كانت هناك أحداث فهي لم تكن ملحة ، ثم أنها فرصة لأهل مكة أن يستوعبوا أن هناك نبيا ظهر من بينهم . ففكرة النبوة لم تكن مألوفة بينهم مثل بني إسرائيل مثلا ، فهم أهل كتاب ، وقد تواتر الأنبياء فيهم ، بينما أهل مكة الفكرة في حد ذاتها كانت بمثابة صدمة ، أو شئ خرج بهم عن مألوف عاداتهم ، أو قل إن

٥٢- فقه السيرة – د. رمضان البوطي – صفحة (٧٠)

الفكرة لم تخطر لهم على بال قط . بينما كانت هاجس ملح عند بنى إسرائيل إلى الدرجة أنهم كانوا على انتظار وتوقع أن يظهر نبى من بينهم أو من غيرهم ، وفرصة أن يستفيض خبر ظهور النبى فى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ويبدأ العرب فى التعاطى مع الدعوة وصاحبها .

وللرسول : كان محمد – ﷺ – فى حاجة ملحة أن يوافيه الوحى ، وكان يتعجل أمره ويستقدم موعده ، ويتحرق شوقا للقائه ، وهذا سبب له الحزن والغم "من حديث عائشة قالت((وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه تبدى له جبريل فقال : ((يا محمد إنك رسول الله حقا)) رواه البخارى ١٢ كتاب التعبير "[٥٣] والذى دفعه إلى ذلك أمران ، عقلى ونفسى .

أما العقلى ، فقد كان أول لقاء بالوحى بمثابة إعلام لمحمد بأنه نبى ، وهذا الأمر لم يكن يدور بخلد محمد أو يطرأ على فكره ، ومن طبيعة النفس الإنسانية أنها حينما تفاجئ بأمر خارج عن كل توقعاتها فهى فى حاجة إلى أسلوب قوى أو طريقة مؤثرة تحمل فى طياتها الإعلام المقنع ، وهذا ما فعله ملك الوحى أثناء لقائه بمحمد ، ولكن اتضح بعد ذلك أنه فى حاجة إلى التأكيد ، أو بأن يقدم له دليل وبرهان ، وليس أى دليل أو برهان ، ولكن دليل وبرهان متسق مع نوعية الإعلام دليل وبرهان نووى لاقناع نبى بالنبوة ، هنا الأمر تعدى الدليل والبرهان ليصل إلى درجة اليقين ، بل لنقل إنه يقين اليقين ، لنستطيع أن نقول إن محمدا خرج من الغار بعد أول لقاء بملك الوحى ولم يشعر بأنامل اليقين الباردة تلقى على قلبه أمنا وسلاما ، نعم خرج من الغار وهو على يقين بأنه صار نبيا ، ولكن لجلال وعظمة وأهمية وخطورة شأن النبوة ، كان الأمر فى حاجة إلى أكثر من يقين ، محمد لم يشك مطلقا فى النبوة ، وإلا لكان تساوى لديه دليل نفى النبوة مع دليل إثباتها

٥٣- الظاهرة القرآنية – مالك بن نبى – هامش صفحة (٢٢٦)

ولكان فى حاجة إلى أى الدليلين ليصل إلى راحة نفسية وأمن وسكينة ، ولكنه كان فى حاجة إلى شئ آخر ، لذلك فالفترة بين أول لقاء وثانى لقاء لم تكن حيرة وقلق وتوتر مصدره الشك ، وإنما مصدره شئ آخر .

أما لماذا لم يكتف محمد بما توافر لديه من قناعة واقتناع بأنه نبي ؟

فهذا شئ يرجع إلى شخصية الأنبياء بصفة عامة وإلى شخصية محمد بصفة خاصة .

شخصية النبي شخصية فتحت أمامها الكثير من الأبواب ، وأفيض عليه الكثير من الفيوض الربانية ؛ فعلم وأدرك ووعى أن ذاته محدودة بالنسبة لما يعرض عليه ، أو أنه يقارن ما حصل عليه من الله ، أو ما تعليقه ذاته – وهو جزء ضئيل جدا – بما يمكن أن يمنحه الله ، فيطلبون من الله – عز وجل – ما لا يتناسب مع محدودية ذواتهم ، طمعا فى كرم الله ، ورغبة فى عطائه ، وحبا فى ذاته .

وتجلى ذلك في طلب (إبراهيم) عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٠

إبراهيم هنا – عليه السلام – أقر بالإيمان ، والإيمان يتوازى مع اليقين ، ولكن إبراهيم يطمع فى أكثر من الإيمان ، يريد أن يتجاوز تلك المرحلة ، فما يتناسب مع جلال وعظمة الذات الإلهية – وليس مع ما يتناسب مع ذات النبى – هناك مراحل تتجاوز الإيمان ، فقد أدرك إبراهيم – عليه السلام – أنه طالما وصل إلى الإيمان ، فلا شك أن هناك مراحل وحالات موجودة ولكنه لم يصل إليها ، فإدراك شئ يدل ويحتم أن هناك شيئا لم يدرك ، والوصول إلى مرحلة أو نهاية طريق يدل على أن هناك مرحلة لم يصل إليها ، وهناك طرق أخرى لم يصل إلى نهايتها ، ولم يضع قدميه على

بدايتها ، وهو ما عبر عنه إبراهيم بقوله (ليطمئن قلبى) ، تلك المرحلة لم يصل إليها بشرى ، ولم يصل إليها أحد من الأنبياء إلا بعون وتوفيق من الله وحده .

وكذلك الأمر بالنسبة لموسى - عليه السلام - ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأعراف ١٤٣

لا نستطيع أن نقول أن طلب الرؤية ليسد بها موسى فراغا شعر به فى ذاته ، أو ليكمل بها نقصا ، أو ليتم بها شيئا فى حاجة إلى إتمام ، لقد طلب موسى هذا وهو فى قمة الإيمان والثقة ، بل ما كان ليجرؤ ويطلب هذا إلا وهو يعلم مقدار قربه من الله ومقدار قرب الله منه ، ولكن الأمر هنا كما كان الأمر هناك مع إبراهيم . إذا كان قد نال درجة سامية لم يصل إليها أحد من البشر ، وهو أن يكلمه الله – عز وجل – فهذا ما وصل إليه وأفاضه الله عليه ، ألا يطمع موسى وتهفو كل جوارحه وحواسه إلى ما بعد ذلك ؟ وماذا بعد كلام الله وحديث الله لموسى ؟ وما مقدار سعة بحار السعادة والفرح والسرور التى تفجرت فى نفس موسى حينما تحدث الله إليه ؟ وما مقدار حلاوة وعذوبة أنهار الأمن والسلام والسكينة التى فاضت على موسى وارتوى منه حتى شبع شبعا ، إذا كان موسى وصل إلى كل هذا وأكثر مما يعجز العقل عن تصوره ، والقلب عن تخيله ، والنفس عن تأمله .... ألا يطمع موسى أن يصل إلى أكثر من ذلك ، وإلى أبعد من ذلك ، وهذا يتحقق – ولا شك – من خلال رؤية الله – عز وجل – بعد الفوز بسماعه .

ولكن ألم يقنع موسى بأن يكلمه الله ؟ ألم يكفه ذلك ؟

نعم قنع به وكفاه ، ولكن كل هذا قد وصل إليه وأدركه بذاته ، وهناك أشياء أخرى لم يصل إليها ولم يدركها ، ويدرك أنها تتجاوز كل حدود ذاته ، وكل نهايات قدرته ، لذلك طلب من الله أن يمكنه ويمد من حدود ذاته ويرفع من مقدار

قدراته، ويزيد من طاقاته ؛ ليكون قادرا وممكنا أن يصل إلى ما يتمنى ويهفو إليه لذلك لم يسند الفاعل إليه ، لم يقل (أراك) ولكنه قال (أرني) ، أسند الفاعلية إلى الله – عزوجل – والمفعولية إليه ، لأنه يدرك أن ما يطلبه ليس مؤهلا له ، فلا ذاته ولا قدرته ولا طاقاته تمكنه من ذلك . .

- **وبالنسبة لشخصية محمد – ﷺ – :**

هناك حد أدنى لكل شئ فى هذه الحياة ، وهناك حد أعلى ، وهناك الحد الأعلى ، والبشر نجدهم مشغولين ما بين الحد الأدنى والحد الأعلى ، والأنبياء ملموحون أن يصلوا من حد أعلى إلى الحد الأعلى ، ومنهم من طلب طلبات تتجاوز الحد الأعلى .

أما مع محمد فهو لم يطلب أو يتمنى أن يجاب طلبه ، وهذا الطلب لم متجاوزا الحد الأعلى ، ولكنه أراد أن تكون شخصيته موجودة وكائنة ومحسدة عند هذا الحد ، فهو نوع من التواجد والمعايشة الدائمة والمستمرة ، شخصية قررت أن تعيش وتحيا فى هذا النطاق ، وتلزم نفسها به ، باذلة فى ذلك كل إمكانياتها وطاقاتها وقدرتها ، هو لا يريد أن يحقق أمنية أو يحصل على غاية أو يحقق هدف من هنالك ، ولكنه يريد أن يكون متواجدا ، وفرق شاسع أن تحاول جاهدا أن تصل إلى خط النهاية أو ما بعد هذا الخط ، وأن تكون موجودا ومتواجدا – بداية – عند هذا الخط ، عند إذ لا يكون هذا الأمر مجرد خط محدد ، ولكنه يكون نطاقا يتسع باتساع أفق تلك الشخصية ، ويزداد رحابة بزيادة ملموحات ورغبات تلك الشخصية ، ويتحول – النطاق – إلى عالم تنشئه وتقيمه حولها تلك الشخصية .

لذلك فلم يكن محمد عابدا ، وإنما أنشأ عالما من العبودية الحقة والصادقة لله.

لذلك لم يكن محمد إنسانا على طراز أو نمط إنساني نعرفه أو نألفه . وإنما أقام عالما إنسانيا مؤسسا على الكرامة والعزة ، فريدا في نوعه . ولا نظير له في نمطه .

ومحمد لم يكن نبيا فحسب ، وإنما نسج طرازا من النبوة جمع فيه كل صفات وخصائص وسمات الأنبياء قبله ، ثم صاغ وكون من تلك الصفات والخصائص والسمات عالما نبويا قوى الأركان متين الدعائم ، كما لم يقمه نبي قبله.

ومحمد لم يكن بشريا سويا فقط ، وإنما استطاع أن يحقق كيف يكون البشري قادرا ومريدا أن يتحمل أعباء ومسئوليات النبوة ، وفي نفس الوقت لا تنهزم فيه بشريته أو تضعف أو تتضاءل ، ليبرهن بكل جرأة ووضوح أن يكون صالحا وأهلا للتكليف وحمل الأمانة ، بعدما فجر ما في داخل البشري كل طاقات وإمكانات الخير . ولم يكن عمل محمد وفكره محصورا في زمانه ومكانه ، وإنما اعتبر هذا الزمان والمكان نقطتي ارتكاز لينطلق وتنطلق الدعوة ليصبح كل زمان هو زمان الدعوة ، وكل مكان هو مكانها .

ومحمد لم يكن رسولا ، مكلفا برسالة إذا أداها على قدر وسعه رضا واستراح ضميره وهدأ عقله ، ولكنه ناط وجوده وبقائه ومصيره بتلك الرسالة وكان على استعداد في كل لحظة وفي كل مرحلة عصيبة مرت بها تلك الرسالة أن يهلك دونها ، وقد أعلن ذلك بكل قوة وجرأة وشجاعة متحديا العالم كله ، في تلك اللحظة لم يتجمع إيمان وحب وتضحية وقوة إرادة ومضاء عزيمة وصلابة عقيدة وثبات رأي كما تجمع في قلب محمد .

شخصية هذا شأنها ، وهذا فكرها ، وهذه طموحاتها ، وتلك قناعتها ، لا ترتضي عن يقين اليقين بديلا ، وهي تريد هذا الشئ عاجلا ؛ لأن الانتظار نوع من القتل البطئ ، نفسه تريد أن تستريح وتستقر وتصل إلى أمن وسكينة الاطمئنان

العقلى ، بدون هذا محمد فى ضيق ومأزق لا أحد يستطيع أن يتصور مقدار معاناته " ففى بدء الرسالة وعلى وجه التحديد بعد الوحى الأول الذى رويناه ، انتظر النبى زمنا طويلا ، أكثر من عامين قبل أن يرى للمرة الثانية زائره الغريب ويسمع صوته فهو يعتقد انه : إما أن يكون قد خدع فى جوارحه ، وإما أن القدرة قد تخلت عنه تلك التى اعتقد حينا أنها هى التى تقوده ، هذا القلق مؤلم لنفسه ، وأنه ليتسرب إليها كأنه حية تطوق فكره ومشاعره فتحطم بضغطها طموح هذه النفس المتأصل إلى اليقين الصادق .

ومرة أخرى لحظات مؤلمة ، ودقائق مؤثرة بالنسبة لمحمد ، ذلك الذى يبحث مستيئسا فى نفسه وفيما حوله عن المنبع الخفى الذى تدفقت منه الآيات الأولى من القرآن ، وإنه لدعاء حزين لنفس موجعة ، وصمير أضناه القلق ، دعاء صوت لا يجيب ، أو لا يريد أن يجيب ، فقد التزم الصمت خلال أكثر من عامين . وإن فكر (محمد) ﷺ ليحاول مناقشة حالته الفريدة دون أن يجد لها تفسيرا فهو يغرق فى الإعياء ، وقد هده ما يعانيه من التوتر العصبى ، لقد كان يتفانى كأنه شئ خامد سقط فى النوم " [٥٤] .

أما النفسى : فمن خلال المؤثرات التى أثرت فى شخصية محمد، اتصفت تلك الشخصية بصفات ، فهو ظمآن ظمأ شديدا إلى الحب والعطف والحنان ، فقد أمضى خمس وعشرين سنة من عمره مفطوما عن الحب والعطف والحنان ، نعم كان هناك بعض المصادر التى يستمد منها ما تحتاجه ذاته من مشاعر وأحاسيس ولكن كان هذا فى حده الأدنى ، ومثل هذا الأمر يؤصل الشعور بالحرمان أكثر مما يشبع الذات ، تلك السنوات الطوال طبعت الشخصية بهذا الطابع ، أنها ذات باحثة دائما ومتشوقة إلى أن تروى ظمأ الذات ، وتطفئ هذا الشوق المشتعل دائما إلى أن تضم وتمنح وتعطى ، ودخلت تلك السيدة العظيمة فى حياته ، وروت عطشا

٥٤- الظاهرة القرآنية – صفحة (١٨٦ – ١٨٧)

واطفأت ظمأ وأرضت شوق تلك الذات من الحب والعطف ، فهى لم تكن تعتبره زوجا فحسب وإنما ابنا وأخا وصديقا وأكثر وأقرب من كل هؤلاء ، واستطاعت أن تؤدى هذا الدور بكل كفاءة ، ساعدها فى ذلك سنها وتجاربها وفطرتها وذكاؤها فضمته إلى صدرها ، ومنحته كل ما يحتاجه من حب وعوضته عن حرمان ومرارة ومعاناة سنى عمره .

وهو أيضا لم يعتبرها زوجا فحسب ، بل أما وأختا وصديقة وحبيبة وأكثر من كل هؤلاء .

وعاش محمد ناعما هانئا بتلك الرعاية وهذا الحب .

ولكن كل هذا حب وعطف وحنان من مخلوق لمخلوق ، فخديجة - رضى الله عنها - تمنح من الحب والعطف والحنان على قدر ما تطيقه ذاتها ، نعم هى لم تدخر جهدا ولم تبخل ولم تقصر فى رعاية محمد والاهتمام به ، ولكن إذا جرب الإنسان حب وعطف وحنان الله ورعايته ، فهنا حب وعطاء خالق لمخلوق ، إذا جرب الإنسان عطاء الله فلابد أن تطوق نفسه إلى هذا الحب ، فهو حب لا مثيل ولا نظير له ، وإذا لمس طرفا من هذا الحب شغاف القلب ، فلن يقر له قرار حتى يكون على اتصال دائم بفيوض هذا الحب .

وهناك جانب لم يحظ بالاهتمام الكافى ، وهو نفسية محمد بعد لقائه بملك الوحى ، فلقد شعر بنوع من الرعاية والاهتمام الإلهي ، لم يشك لحظة أن مبعث هذا الاهتمام والرعاية هو الحب ، تفتحت كل مسام هذه الذات لتنهل وترتوى من هذا الحب الربانى ، وإذا كانت الذات الإنسانية تصل إلى حد الشبع والارتواء من الحب والحنان والعطف ، وتصل إلى حد الاكتفاء ، فهذا شأن الحب الإنسانى ، أما مع الحب الإلهى فلن يصل الإنسان إلى حد الشبع والارتواء والاكتفاء ، بل هو فى شوق دائم أن يكون موصولا بهذا الفيض ؛ لأن هذا الحب ينقله إلى ملكوت آخر ، وعالم غير العالم الذى يعيش فيه ، هذا الحب يجعله فى

معية الله . فالكون كله – وليس الإنسان فحسب – يهفو أن يكون موصولا بخالقه حب وجودى يشمل الوجود كله .

حينما نايلت محمدا حالة اللقاء الأول بالملك ، وتخلص من أثار تلك الصدمة أو المفاجأة ، واسترد هدوئه وسكينته ، بدأت جوارحه تتنبه لشئ هام وتجاوز لقاء الملك وما جاء به من وحى وقرآن ، فما وراء كل هذا أنه اصطفى دونا عن الخلق ، واختير دونا عن العالمين ، إذن هذا دليل قوى على حب الله له وتفضيله على سائر الخلق ، حينئذ تفجرت فى نفس محمد كل معانى الشكر والامتنان والحب ، والمحب لا يطيق بعدا عن حبيبه ، يريد أن يشعر أنه بجواره ومعه وعلى اتصال دائم به ، وتمثلت تلك الصلة فى ملك الوحى وما يأتى به .

وأخال أن محمدا – ﷺ – كان يعد الساعات والأيام منتظرا وكله شوق ولهفة الوحى .

وهذا ما جعل إحساس محمد بالوقت الذى امتد بين الفترة الأولى والثانية يطول .

وهذا ما دفع محمدا يظن أن الله قلاه .

وهذا ما دفع محمدا يظن بأن الله قد حرمه من فضل قد غمره به .

وهذا ما دفع محمدا يظن بأنه قد حدث منه ما من شأنه أن يحرم من حب وقرب الله .

وما كان الله – عزوجل – ليذر رسوله يعانى ما يعانيه ، فقد أرسل الملك ليتنزل على قلبه أمنا وسلاما .

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾ الضحى: ١ - ١١

" والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول – ﷺ – في مشقة الطريق وسقياه في هجير الجحود ، وروحه في لأواء التكذيب ، وكان ﷺ – يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة ويعانيها في المكر والكيد المصبوب على الدعوة وعلى الإيمان وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع واستوحش قلبه من الحبيب ، وبقي للهاجرة وحده بلا زاد وبلا ري وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجه ... عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والايناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين "[٥٥] .

- في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد السادس – صفحة (٣٩٢٥)

obeikandl.com